# صالح سعد

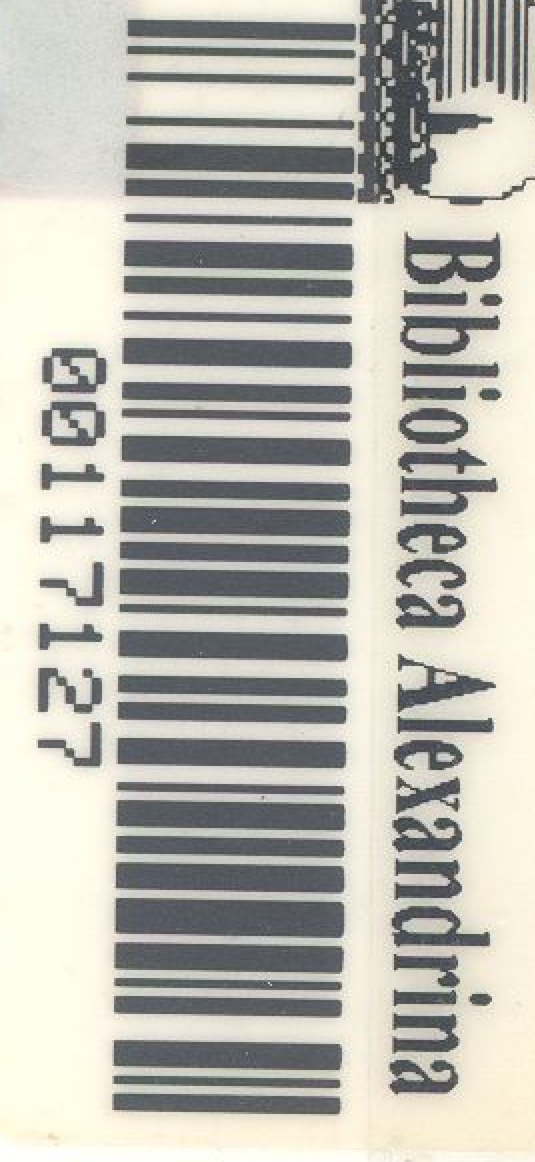
# أيام الغربة الأخيرة



ثلاثة نصوص من ديوان الغجرى



مركز الحضارة العربية



# أيام الغربة الأخيرة

ثلاثة نصوص من ديوان الغجرى

صالح سعد

لوحة الغلاف للمؤلف

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١١٣١٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-166-3




- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

**على عبد الحميد**

مدير المركز

**محمود عبد الحميد**

المشرف العام على السلسلة الأدبية

**خيرى عبد الجواد**

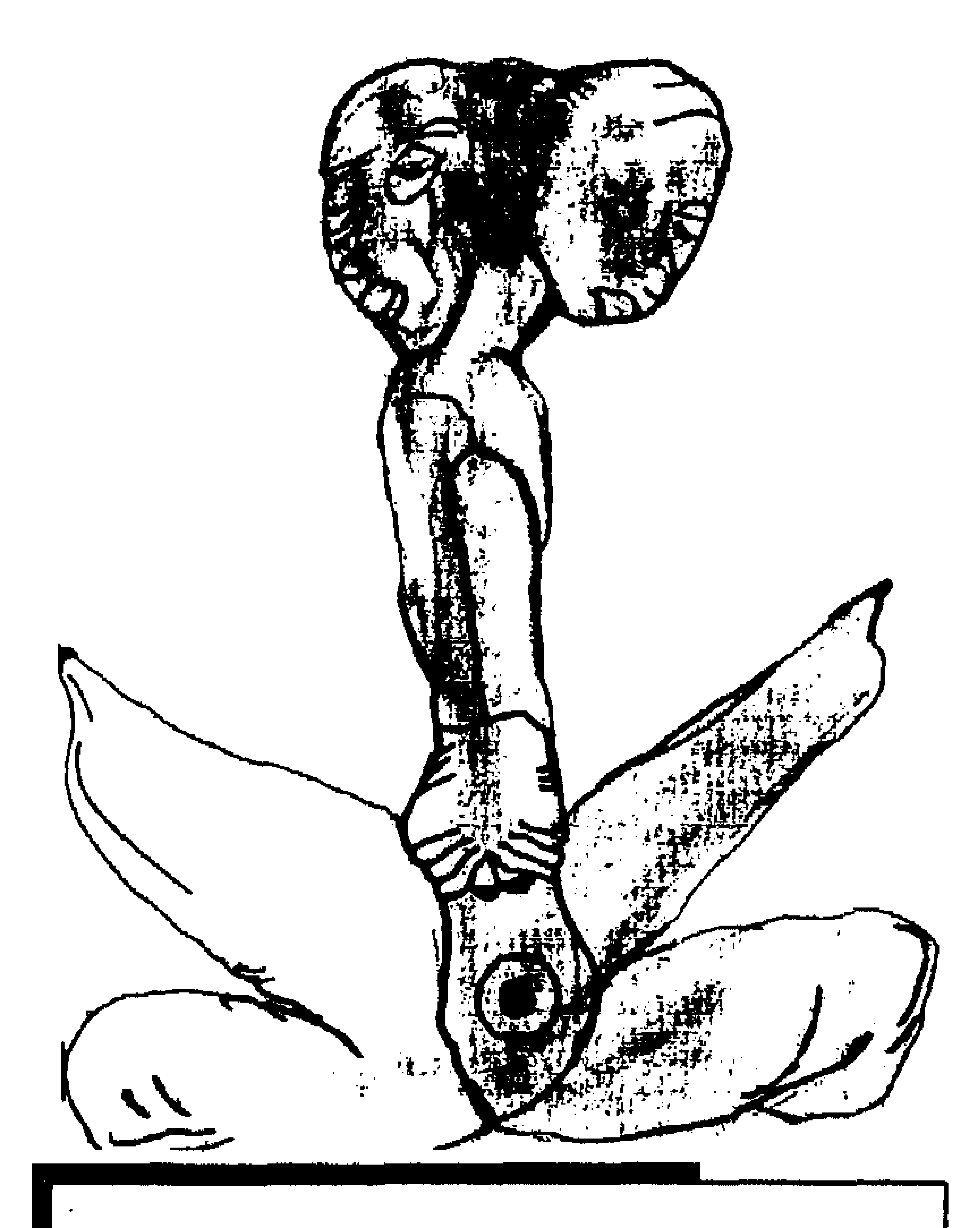
الجمع والصف الالكترونى
مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات ت : ٣٤٤٨٣٦٨

صالح سعد

# أيام الغربة الأخيرة

## ثلاثة نصوص من ديوان الغجري





[ صورة طبق الأصل ]

« لا شيء حقيقي إلا كل ما هو مرعب ..! »

بيدوس - الجحيم

صورة طبق الأصل من محضر الابتداء ..
القاهرة .. الإسكندرية .. موسكو .. سان بطرس برج .. وبالعكس . !
ساعة تاريخه../ .. / .. ١٩
أنه بحضورنا نحن الرقيب الأعلى .. المحترم ، الموقع أدناه ، تقيد ما يلى :

" بناء على ما تكرر من وقائع مختلطة ، بعضها واقعي وأغلبها خيالي، في القضية المرقمة ، والمعنونة بالاسم المطبوع خارجه .. والخاصة بضياع الشخصية المملوكة للمواطن فلان صاحب الأوصاف المذكورة في أكثر من موضع منشور . !

تم فتح المحضر المسجل عاليه لإثبات ما سوف يلى من أقوال وجدت بخط المذكور ، وهي ما يعتقد المختصون في الأدلة النفسية والأدبية بمديرية الأحوال النفس - اجتماعية لدينا أنه مسودات ابتدائية لما يسمى بالمذكرات الشخصية ، أو أدب الاعترافات .. والأدلة المذكورة ، المثبتة هنا، عبارة عن:

قصاصات ورق قديمة ، رسائل بريدية متآكلة منزوع عن أغلبها الطوابع البريدية بواسطة يد لص مبتدئ - المرجح أن يكون أحد الهواة السخفاء - كراسات قديمة مدون بها بعض الصفحات بغير نظام ، مجموعة صور ورسوم لأشخاص وحيوانات - عصافير ، قردة . خيول.. - ومناظر طبيعية من أماكن مختلفة ، ديسكات كومبيوتر .

وقد ثبتت ملكية الأشياء المضبوطة للمذكور المواطن فلان ، بعد ضبطها وتحريزها من شقة المدعو هنا الصديق العزيز جدًا* . هذا وقد تم استصدار أمر النشر لهذه الوثائق بعد فحصها من الخبراء المختصين ، وبإذن مني أنا شخصيًا / الرقيب الأعلى .. المحترم لذا ننوه أن ترتيب وترقيم الوثائق

---

* ( وقد تم التعرف على شخصيته الحقيقية بالبحث والتحري ، حيث يعمل في المجال الفني والإعلامي ، غير أننا شئنا إثبات الاسم بالأحرف الأولى أ.م حرصا على التقاليد الاجتماعية المصونة .. )

الواردة هو من لدنا نحن . كما ننوه أن قراءة الصفحات التالية غـير مسموح بها قانونًا إلا .. لمن يهمه الأمر . !

- انتهى ، أو بمعنى أدق ، ابتدا.. -

توقيع وختم

## « وجع الكتابة .. »

– صورة طبق الأصل من تقرير خبير الأدلة النفس – اجتماعية حول شخصية المواطن فلان المذكور –

ساعة تاريخه .. / .. / ..١٩

يبدو – و كما اعترف المذكور لي في أكثر من جلسة – أنه منذ المرة الأولى التي رأى فيها اسمه " يرتكن " مطبوعًا تحت نص ما، وكان ذلك في بريد القراء بإحدى الصحف الكويتية نهاية السبعينيات ، وحتى اليوم ، وهو يحلم بكتابة حقيقية يقول فيها ما يريد بالتمام دون خوف ، ولأنه لم يستطع ذلك مئة بالمئة فإنه ظل يعاني وجعًا لا ينتهي . هو ما أقصده بوجع الكتابة – وجع البوح والإفاضة والرغبة في التخلص من هذا الرقيب الذاتى القابع فى مؤخرة الرأس حائلا بين الشخص وذاته! –

ويبدو أنه ، منذ ذلك الحين ، وهو يحلم مثلاً بالكتابة في السياسة ، وفي الفلسفة ، وأشياء أخرى لم يستطع الخوض فيها إلا خلال الثرثرة الفارغة بين الأصدقاء – كما يقول هو نفسه في أكثر من موضع – لكنه لا يفعل . خاصة وقد ألزم نفسه بقميص المحترف ، ومن بعدها برداء الأكاديمي ، المتخصص ، منذ أن أصابته ـ فجأة ـ ضربة المسرح ، التي أورثته وجعًا آخر أشد إيلامًا !

وكما قال لى المذكور ذات مرة ، فى إحدى جلسات التحقيق قبل اختفائه ، أو ضياعه ، الشهير : اسمع يا طبيبي العزيز .. أن تتخصص وتعمل بالمسرح في بلادنا فإنك تشبه أحد أبطال تلك المفارقات الكوميدية التى اشتهرت فى مصر ، إبان بدايات إنشاء القطاع الحكومى العام ، والذي يجد نفسه موظفًا في مصلحة المجاري ـ مثلا ـ بينما يكون قد حصل – مثلا – على أعلى مؤهل فى الكيمياء النووية!

وفى رأيى أن تجربة الكتابة – والتجربة الفنية عمومًا – أشبه ما تكون بتجربة الجنون ، وأن الكاتب ، أو الفنان – مثله مثل المجنون – هو شخص قد وافق – ولكن بإرادته الواعية – على أن يكون خارج السياق الاجتماعي، وفق ما اجتمع عليه الناس من أمر عزله طبقًا لعقد اجتماعي

غير معلن ، ضمني ، من أجل الحفاظ على صحة المعايير والنظم المجتمعية الراسخة ، والتي لا تقبل الظهور العلني ، العادي ، للشخوص والأفكار الخيالية الغريبة عن الواقع الحي ، المباشر ، وتلك صورة قريبة إلى حد كبير من صورة الصعلوك ، الشاطر ، في تراثنا العربي ، التي وضعنا في إطارها - كما تعلمون - الشعراء ، الغاوين ، الخارجين عن حياة القبيلة وتقاليدها .

ولكن الفرق الجوهري بين المجنون والفنان ، هو أن هذا الأخير ليس مجرد شخص صامت تتآكل نفسه بالخيالات والهواجس ، التي لا يرى منها الآخرون شيئًا سوى تهويمات وإشارات غامضة غير مترابطة . بل أن هذه الخيالات والهواجس بالذات هي بضاعته التي يعرضها على الناس ، ويعيش على إعجابهم بقدرته على ابتكارها وتنسيقها في تلك الأشكال البارعة ، وكأن وجود الفنان بيننا ، ومن ثم شهرته وسطوته أحيانًا ، هي دليل إدانة لنظامنا الاجتماعي الذي قضى بعزل تلك الفئة المسكينة من الناس ، المجانين ، لمجرد أنهم لم ينجحوا في أن يوفروا لنا متعة الفرجة على ما ينازعهم من شطط وخيالات غريبة ، مثلما كان يفعل أشباههم فى العصور القديمة ، قبيل اختراعنا نظم العزل الاجتماعى !

- ولعله من الأفضل أن نقتطف هنا آخر ما كتب المذكور ، وهي تحمل رأيه الشخصي في حالة وجع الكتابة ، حالته ، التي نرى أنها المبرر الوحيد المعقول وراء ضياعه ، وليس أي شبهة جنائية ، ذات أبعاد اجتماعية - سياسية ، كما يرى سعادة الرقيب الأعلى المحترم:

[ للكتابة أوجاع تتعدد وتتنوع مع اختلاف الأزمنة والأماكن وغيرها من الظروف والمعطيات التي تتحكم في حياة الكاتب . غير أن هذه الأوجاع قد تزيد وتتضاعف مع تعدد الأنواع الفنية التي يمارسها الكاتب، فللشعر - مثلا - وجع خاص يزيد كلما طالعت شيئًا من كتاباتى التى توقفت عن متابعتها منذ سنوات أربع تقريباً ، وكأنى به قد هجرنى فهجرتنى نفسى!

ومن هذا - أيضًا - ما حاق بي من الرعب ذات مساء ليلة عادية ، وبينما كنت مشغولاً بإعداد قهوة لنفسي ، حين قلت لها - لنفسي - أريد أن أكتب رواية. ! ، ومضيت أتابع عملي غير مبال لما أصابها من صدمة

مفاجئة لأجدها فيما بعد مفصولة عني ، وكأنها تتحاشى مواجـهتي ، بـل أنها رفضت بالفعل قهوتى ، وتركتها فوق الطاولة حتى بردت !

ومـن سـاعتها وإلى سـاعتى هـذه لم يعد يـهنأ لى بـال ، ولا يسـتقر بـى قـرار ، فقـد صـار بيـني والكتابـة جفـاء لا أدري سـببه ، وحتـى تلـك الموضوعات الصغيرة ، التى كنت أكتبها بطرف قلمى ، وفى غضـون دقـائق معـدودة ، أصبحـت كتابتـها فعـلاً شـاقًا يسـتنزف قـواي ووقـتى علـى نحو غريب ، لم أعهده في نفسي من قبل ، والأغـرب أنـني حتـى لم أعـد أستطيع التراجع عن مشـروع الروايـة – الحلـم الـتي أود كتابتـها ، والـتي أصابنى منها ما أصابنى !

أليست الكتابة ، بهذه الصورة ، هي فعلاً قدر التعسـاء،المضروبـين،مـن أصابتهم لوثة العقل واضطراب النفس،فراحوا يشيدون تلك العوالم البعيـدة عن الواقع ، ومن ثم فهم يتخبطـون في حـل أبسـط المشـاكل اليوميـة ، ولا يقوى أغلبهم على العيشة البسيطة ، السهلة ، التي ينعم بها الجميع بـين أسرهم .؟

وهكذا أقف أنا – كاتبًا – اليوم على حافة الهوة السحيقة التي تفصل ما بيني والآخرين، شاهراً دهشتي بوجه العيون النهمة والألسنة المهتاجة تلوك صورتي وأسمي ، ثم تبصقني على قارعة الطريق ، تصرخ بي: مجنون ( لو أحادث نفسي ) مفتون ( لو أتحدث عنها ) معقد ( لـو أكتـب عـن المـرأة ) ذئب مسعور ( لو أتحدث معـها ) شـاذ ( لـو أسـقطتها مـن حسـاباتي فـلا تحدثت عنـها أو معـها ) واهـم ( لـو أتسـاءل عـن المستقبل ) محبـط ( لـو تذكرت الماضي ) وقح ( لو تحدثت عن الحاضر ) عنصري ( لو تحدثت عن الوطن ) شيوعي ( لو أتحدث عن الفقراء ) مادي ( لو أنكر سـطوة الظـلام ) مثالي ( لو سعيت إلى النور ) .. !؟ وألف ألف ( لو ) التي أحسـبها فاتحـة الخيال ، ويرونها مفتاح الشيطان .. ولكن هل لي إلا أن أفعـل كـل هـذا .. أن أكتب!؟ ما دمت مصراً على البقاء حيًا ؟

فعندما تعبث يداي بصفحات أي كراس قديم يجمع بين دفتيه قصـائدي العمودية الأولى، أحاول التذكر كيف كتبتها.. فأدرك جليًا أنني مرغم علـى الكتابة.. لأنني مرغم على الحياة..الكتابة.. فما بينهما موت.. موتي؟ وهل

يكون الموت إلا تلك العتبة الفاصلة بين الحيوات .. وليس فقط تلك النهاية الغامضة التي حمل إليها الكثيرون من الأحباء.. فالموت ليس هو فقط ما بعد الحياة ، بل قد يكون قبلها ، أو في قلبها..وعندئذ لا يكون هناك فرق..، إذ تكون الحياة عندئذ كالموت ، وان بدت الأولى أكثر إيلامًا كونها محسوسة، مدركة، بينما الموت لا محسوس ولا مدرك، في حين أنه حاضر بقوة بين كل نفس نتنفسه ، لا يداخله أي وجع كان..

وعلى ذكر الموت الجميل ، فقد أسلمت – بالأمس – رأسي للطبيب الهندي ، المهذب إلى أقصى حد ، لكي يلصق بها مجموعة من الأسلاك الغريبة ، الموصولة بجهاز تخطيط الدماغ . انتظرت ألا يستغرق هذا الفحص الممل أكثر من خمس دقائق ، ورحت أتبع ، في استسلام ، صوته والضوء الخاطف الذي قذف به في عيني ، وهو يأمرني بإغماضهما ثم فتحهما . لكن المسألة طالت حتى كدت أختنق بين يديه ، وأنا أشعر بمرور الزمن في بطء قاتل ، فلما حانت اللحظة التي أفقت فيها وجدت بين يديه كتاب الرأس الموجوع ، وقد اقتربت صفحاته من المائة ، وزيادة ، بينما كان المسكين غارقًا فى تأمل حالتى الشاذة ..

لم أفهم في البدء ما الأمر ، وهل تستدعي شكواي البسيطة كل هذا الفحص المريب .؟ فلست أعاني من شئ تقريبًا سوى النوم غير المريح ، وبعض الشرود المفاجئ ، ولا شئ أكثر من تلك الشحنة العالية من التوتر ، التي أحس بها كلما صحوت من نومي ، والتي تجعلني أستغرق وقتًا ، أطول من المعتاد ، حتى أصل إلى التوازن الضرورى لكى أنهض إلى الحياة اليومية بصورة طبيعية .. فقط !

ولكن عندما رصد الطبيب بؤرةً وراثيةً " مضروبة " في الفص الأيسر من الدماغ ، اجتاحتني نوبة إشراقية مفاجئة ، وانجلى لي غامض علاقتي بالعالم اليومي ، عالم النظم والقوانين ، والمعايير والقواعد المقررة!

فمنذ الصغر وأنا أشعر أن ثمة فاصل بيني وهذا العالم ، فكثيراً ما بدا لي وكأنه كتلة عمياء ، غير محددة الملامح ، وإن كانت تتخذ بين الحين والآخر أشكالاً مختلفة لكائنات خرافية ،مسعورة ، أراها مستعدة دوماً لالتهامي ، لها جميعاً نفس الرائحة الخاصة المميزة .. أما أن هذا الوجع وراثي فذا شئ طبيعي ، فالروابط القبلية الوثيقة التي أعلم أنها قد جمعت

بين الضدين أمي وأبي ، فعلت أكثر من هذا بي وبأخوتي من قبلي ، فمنهم من مات شهيد الصرع . ومن عاش على شفا موت!

وقد كان أبي وحده من بين رموز العالم الاجتماعي ، الخارجي ، هو الأكثر بروزاً وتأثيراً في حياتي ، نتيجة صراعي المستمر معه . فهذا الشخص، الغريب الأطوار ، القريب الشبه من سي السيد في ثلاثية نجيب محفوظ ، هو من عشت عمري - ولا أزال - لا أدري هل أحبه أم أكرهه.. وسيبقى ، بالنسبة لي ، لغزا مستعصيا على الفهم .. فلا شئ لدي عنه سوى صور مبعثرة بلا رابط أو نظام يظهر فيها مثل مارد مخيف ، غاضبًا ، متجهمًا ، دائمًا ، ونادرًا ما يلوح متبسماً في ظلال ، أو دخان ، جلساته المسائية بين شلة أصدقائه القليلين .!

هكذا أفهم الآن سر وجع الدماغ الدائم ، الذي يؤرق منامي . فقد كنت دائما أشعر بنفسي في وضع الفريسة المطاردة بالنسبة للآخرين ، وأولهم أهلي وعشيرتي ، في نفس الوقت الذي كنت أحاول فيه لعب دور الطائر المتعالي ، الذي يرى كل شئ من عل ، ومن زاوية خاصة جدًا ، وكأن ما يدور هناك ، في الأسفل ، ليس سوى لعبة جماعية بلا منطق ، أو مشهد من مسرحية ( فارص ) هزلية .

وفي مثل هذا الوضع الشاذ كان من الصعب عليَ قبول مبدأ التفاوض ، أو التعايش ، مع هذا العالم المفزع ، المخيف . فلم أكن أبداً قادراً على الاندماج بسهولة في أي شخصية أحاول لعب دورها ، وهذا هو السبب في أنني كرهت دائمًا العمل ممثلاً وفضلت الإخراج طريقًا لي في المسرح ، وهو السبب أيضا في عشقي لعبة " التغريب " ، أو المسرح داخل المسرح .

هكذا وجدت نفسي في صدام مشتعل مع العالم الخارجي ، ومن ثم في هذا الوجع المستمر ، وجع الفصام بين الصمت والكلام ، القبول والرفض، وكأن كياني كله بين كفتي ميزان ، لا تستقر إحداهما هبوطًا حتى تصعد بها الأخرى .. بلا نهاية .!]

- انتهى -

الموقع أدناه : خبير الأدلة النفس - اجتماعية ..

# نصوص المضبوطات

# ( كتابة طبق الأصل)

## ١

بـيان حالة المواطن .. " فلان " ..( )

اسمى ..
وكما ينطقونه هنا دائما
"فلان " ..
– معذرة ،
فأنا لا أخجل من ذكره ،
لكنه بلا معنى كأي اسم –
ولدت مرةً فى علبة الصفيح ،
وأخرى فوق تل للعقارب ،
وثالثةً خلف مسلخ الموتى .
فعندما صرخت أمى على صدر الشتاء ،
فى المرة الأولى ،
ابتلع أبى سيجارته القديمة ،
ومضى – بغير ساقين –
لكى يدفن حبلى السري مرتين
فى مؤخرة المدينة ،
ومن يومها
وأنا أحيا – هكذا –
بلا امتعاض ،

---

( ) الكلمات وجدت بخط المذكور ، وهي في حقيقتها سرقة أو معارضة ـ بتعبير نقدي مهذب ـ لقصيدة الشاعر ورجل المسرح الألماني برتولت برخت ، المعروف بميوله اليسارية ، والمسماة : قصيدة عن البائس ب.ب" وقد وجدت أيضا منشورة بمجلة "الثقافة العربية " ، الجماهيرية العربية الليبية..

وقد أوردنا هذا النص ، الذي يشبه إلى حد ما القصيدة الشعرية ، ولكن على الطريقة الحديثة السقيمة ، في البداية على الرغم من أن تاريخ كتابته يرجع إلى عام ١٩٨٧ ، بسبب جرأته الفاضحة في الكشف عن ميول واهتمامات المذكور ، المتعارضة بالكلية مع المعايير الاجتماعية العليا المتعارف عليها .

حياة الدود الأكول !

.. .. ..

جربت مضغ الشعر .. لأنى :
عندما كنت أصحو – فجأة –
فى ذلك الصباح المُدمى ،
كان فمى يحيض حزنًا .
وكانت رأسى تسقط مثقلة
بين قدمى العاريتين .
وكنت عندما أحاول العودة إلى النوم
يبللنى الفراش الملوث !

. .

كنا ونحن صغار
نرتاد الزوايا الباردة
نسرق خيط الظلمة ،
ونلمس عصا النار ،
ثم نهرب غير نادمين .
ولا أحد يومها قال :
إن ذلك غير مستحب .
لأن أحدًا لم يرنا ..!

. . .

وفى الليالى الشاغرة
كنت أرقد تحت النساء
أحلم بموعد للبحر ،
ومن بين مائة ضفيرة
رتبت لى ألف مسبحة
أرتل عليهن أناجيلى .
ثم أمضى – هكذا – غير راض .
فيما هن يضاجعن أنفسهن !

.. .. ..

وكم كنت وحيدًا ..

كنبتة شيطان حالمة .

فكنت أخرج فى كل عام ،

إلى كهف العائلة البعيد ،

– مزودًا بما يكفى من دموع –

استمع حكايات الموت المجنح ..

وأغان النهود الثكلى ..

على شاطئ الدم القريب ..

حتى جاء عام ..

تغنيت فيه لقلبى الرضيع ..

ومن يومها ..

لم أعد أشعر بالحزن .!

.. .. ..

وفي بيت صغير من بيوت النمل الأحمر ..

أتقنت لغة اللغة ..

فكنا نطبخ الكلمات الصعبة ..

فى قدور من ورق ..

ولما كنت أسأل الرجال عن الصباح .؟

وعن تلك المدائن النائمة خلف الجبل .؟

كانوا يبعدوننى وحدي ..

لكى أرقص مع نبض الساهرين ،

رقصة الأحوال وكيف تنقلب ..

لكننى ..

– وحتى الآن –

لم أعرف كيف !؟

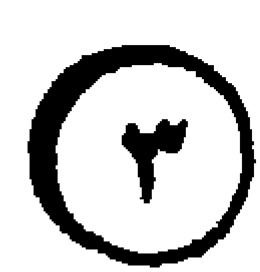
.. .. ..

وفى الربع قبل الأخير ..

عشقت أقنعة المهرج ..
ورقصة الملوك المزيفين بين زرقة الحقول ..
على إيقاعات الغضب ..
فكنا نبدل القرى ..
- كما نبدل حذاء بحذاء -
لكن الأمر كم كان صعبًا ،
عندما ظل الجميع ينادوننى :
- من وراء حجاب -
" يا أيها السيد ..."
لذا فإننى أقولها :
على أن أتعلم من جديد
ألف باء السخط .. !
.. .. ..
اسمى ..
كما ينطقونه هنا دائمًا
" فلان "
ولدت فى علبة الصفيح ،
ما بين صراخ أم ونيران أب ،
فلم أقو بعدها على أن أدعى القداسة .
لأنى ما زلت أحيا
- هكذا -
حياة الدود الأكول ،
بلا امتعاض .

## ٢

هي رسائل .. مجرد رسائل .. أود كتابتها إلى الجميع . ،
إلى أولئك الذين قذف بهم القدر فى طريقى ،
أو الذين قذف بى القدر على طريقهم ..
– فلست أدرك الفارق الآن –
هى رسائل ..
فيها اعتذار ، وتبرير ، عن كل شيء .. ،
مثلما فيها شوق إلى كل شىء .
أجل ..
فلا مجال بعد ، ولا رغبة لدي ، للتكفير عن كل خطاياي .،
تلك التي أورثتني إياها الكتابة .. كتابة الاختلال .
فأنا أعرف أنني سأعيدها جميعًا .. خطيئة تلو خطيئة .! ؛
مادمت أكتب لا أزال ..
هى رسائل ..
فيها أسفى على نقائصى العديدة ،
وأيضًا على أن أحدًا لم يقبلني كما أنا ..
المخلوق الناقص ، العنيد ..
هى رسائل ..
أعتذر فيها من الجميع .. ،
قبل أن أنطوي وحيدًا – كما تمنيت دائماً –
فى صحراء الضياع ..
ألعق جراحى .. أنتظر الموت الجميل .



الإسكندرية .. صباح صيفى .. العام ١٩٩٤

تلك لحظة – أو فلنقل فرصة – للتأمل ، فلا تدعها تفلت من بين أصابعك.. فلا تحاول مثلا أن تلقي بالورقة إلى سلة الملل ، أو أن تعود بالقلم إلى موضعه الأثير في جيب القميص مثل حلية ، أوعلامة تذكارية للهوية الخافية بين الصنائع السبع ، والحظ الضائع !

خطوة إلى الوراء .. خطوة إلى الداخل .. وكم هي طويلة تلك الخطوة بلا نهاية .. وكأنها خطوة في الفراغ ! كل شئ كما كان هنا لم يتغير .. فقط هو الزمن المتغير الوحيد ، الباقي ، الأزلي .. أو فلنقل هو شعورنا به يجوس بين أعماقنا التى تخلو شيئاً فشيئاً من الحياة.

دستة أعوام كاملة ولت ، وهاهو العام الثالث عشر يلحق بهم ، منذ أن أصابنى قدر المسرح ، قدر الغربة ، وضعت فيها عدة مسرحيات فوق الخشبة المكرسة نموذجاً مصغراً للعالم ، عالمي الخاص ، كتبت منها خمس تقريباً ، إلى جانب المقال النقدي والقصة والقصيدة .. عبرت مدن الوادي صعوداً وهبوطاً بحثاً عن جمهور ، وسافرت خارج الحدود بين أكثر من مدينة ، تكلمت بلغاتها جميعاً .. عشقت أكثر من خمسة عشر امرأة من جنسيات مختلفة ، مختلفات الطعم واللون والرائحة ، وأصبح لي أربعة أطفال من ثلاث نساء !

فيالها من حياة .. حياة كاملة قطعتها بسرعة في ثلاثة عشر عاماً ، ولم أكن لأحصيها من قبل .. كم تدهشني هذه الإحصائية ، ولو أنها غير دقيقة تماما ، فللمرة الأولى يستوقفني شريط حياتي ، أو جزء منه على الأقل ، لكى أرى جيداً صنيع يداي!

قد تكون لحظة مشوشة ، لحظة التأمل المدهشة تلك ، بحكم طبيعتها ، إذ إنها بالفعل وقت ضائع أكاد أمسك به بين زحام ساعات العيد المكرسة غالباً زمناً للفوضى والضجيج ، ولكنها أيضًا لحظة لامعة ، تلك التي اجتمعت فيها بعد طول بعاد إلى البحر ، هنا على صدر

معشوقتي الرائعة .. الإسكندرية .. مدينـة المـدن ، المتفـردة وحدهـا بينـهن كونها الأكثر ملائمة للعب دور العشيقة ، أو صديقة السر، هذا الدور الـذي غرمت به من بين أدوار النساء جميعا !وهاأنت ترى كيف انفلت القلم مني دون عناء ، لكي يتحدث هكذا طليقاً ، حديث الذات العارية عن كل قيد .! وإذن لن أدعها تفلت مني .. تلك اللحظة اللامعة .. الغاربة .!

# ٤

الإسكندرية : مايو ١٩٨٥

الصديق العزيز جداً .!

وهكذا .. قررت الشروع في الكتابة .! كتابة الاختلال ..

وبالطبع لدي دوافعي المحترمة نحو هذا المشروع الصعب والمعقد معاً.. فلم أكن لأستطيع التسليم بمثل هذه الرغبة ، قبيل هذا الصباح المتأخر ، من نهار العمر القصير والمضطرب إلى أقصى حد .. ولا أخفيك – طبعًا – أن الأمر لا يخلو من كثير من الإرهاق ، وأيضاً الملل ، ولعل هذا هو ما يفعل بي شعوري الشرقي الدائم بالخجل أو الخوف – أو بهما معًا – تجاه فعلا ما أفعله لابد أن يراه الآخرون. هذا بالإضافة إلى ما تحتاجه الكتابة من سكون وهدوء قد يطولا بي ، داخل العش الضيق ، المنفرد وحده فوق مظاهر الحياة اليومية ، الصاخبة.

وقد يتبادر إليك أن تسألني : لماذا الكتابة !؟

وأقول.. لا لشيء .. إلا لمجرد الكتابة ، وهي فعل – لو تعلم – جد مهول .. فأنا أريد أن أكتب ، ولو دفعت من حريتي ودمي ثمناً للكتابة!. كتابة الاختلال ، التي أعتقد أنها سوف تكشف لك الكثير مما يدور هنا – بداخلي – في هذا الجزء الحار ، المظلم من الذات الخفية للشرقي المتنع عن الجهر بأي قلق وجودي فعال .!

وقد تلومن نفسك على صحبتها إياي ، وتحملها جريرة تهوري وهوسي بما تفعلونه أنتم أهل الفن ، لكني أمنعك عن هذا تمامًا .. وكما قلت فلدي دوافعي الخاصة والمحترمة! ذلك لأني – مثلا – عندما حطمت قشرة الذات الأولى ، وارتفعت إلى الظل الأعلى من النسيان والهجران والتعب .! لم يكن ما حصلت عليه من مقابل ليساوي إلا حفنة زهيدة من زهو الانشغال اليومي ، المزين ببعض من قصاصات الصحف التي طبع عليها اسمي وصورتي.. ولقد حدث هذا في ذات الوقت الذي زحفت فيه الصحراء الأكول فوق جنتي الجريحة. عندما رمت بي أولى رياح المساء المعتمة من فوق شجرة التأمل المزهوة بنفسها!

أجل ..

– يا صديقى العزيز جداً –

فقد غطت الرمال كل ما تبقى من الوادي المزهو القديم ، ولم أعد أعرف لون الربيع ، فأصبحت – كما كنت تراني – قعيد اليأس بلا أمل، وحتى عندما تعرفت – معك – على وجه البشير الجديد – بشير الجموع – ظننت أن لديه قلب ، بالرغم من أنني لم أسأله عن هذا أبداً، ولا سألت أحداً آخر من رجاله المخلصين ، لأني عودت نفسي – في الآونة الأخيرة – على مهارة الاحتمال ، تلك الميزة التي كنت قد نسيتها بعد ما أفلتت من قيد أبي ، وعودتها أيضاً مهارة النوم الكاذب فوق كثبان الرمال المتحركة ، لكن هذا كله لم يعد سهلاً بالنسبة لي .. لا زحف الصحراء الأكول ، ولا فناء الربيع الزاهى . ولا البشير منزوع القلب ..

وهكذا ..اخترت أن أكتب ! لأن قلبي – كما تعرفه – يكره الحديد والرمل والظلام ، ولقد اختار هو – لا أنا – ذلك المنفى القريب من البحر ، لكى يستعيد لنفسه طعم ثمرة الذات الأصلية الأولى .

# ٥

سان بطرس برج: شتاء ١٩٨٨ ..

الصديق العزيز جدا ..

( تكرار نفس المقدمات السابقة – انظر – مع إضافة ما يلي : )

والحقيقة أن هذه ليست المرة الأولى التي أقدم فيها على فعلة البوح هذه ، لكنها على كل حال أفضلها . فقبلا لم أكن أتورع عن البوح بما يعتمل في داخلي سواء على سبيل الثرثرة الفارغة التي تصاحب ، عادة ، جلسات الشراب القليلة ، أو من أجل إثارة جو خاص من الدفء الواجب قبيل الولوج فى عباب ليلة حمراء مدبرة .

لكنني أتمنى لو تكن هذه المرة الأخيرة التي أجلس فيها لكي أتعرى داخليًا ، حتى لا يبقى لدي شئ مما قد أفشل في المحافظة على وجوده سراً خاصًا بي وحدي .! ولعل الفرصة جد متاحة هنا ، والآن ، في منفاي الاختياري القريب من البحر ، الذي آثرت الانزواء إليه بعد ما تفصد دمي سأمًا وملالةً ، وأصبحت غير قادرًا حتى على مجرد مصافحة تلك الوجوه التي عرفتها زمنا ، بمن فيهم أولئك الذين تمازج بيني وبينهم الدم الحار عشقا .. فلدي الآن من الوقت ما يكفي " لكي أحسن نفسي ".. وهل هناك أكثر ولا أطول من الوقت في أيام المنفى في مثل هذه المدينة الشتائية الباردة.؟

فأنا أعيش هنا في بحر واسع من الوحدة ، لكنه ـ أيضا ـ بحر متجمد تمامًا . هكذا يمكن أن تتخيلني الآن مثل سمكة ميتة ، موتًا مؤقتًا ، لا لشيء إلا لأنني ، حتى الآن ، لم أستطع الخوض في أعماق الحياة المشتركة هنا ، ومازلت على السطح ألعق أحزاني الغبية كعادة الغرباء السذج في كل المدن .

وقد تفهم معنى الوحدة على أنها العزلة .. لا فهذا أبعد كثيرًا عن متناول يدي ، فالنزلاء كثيرون من حولي ، وكلهم من النوع نفسه الذي يصر على الدخول فيك هكذا وبدون مقدمات ، أو مبررات ،كافية ، وبخاصة الأشقاء العرب .. يكفي أن يشاع أنه قد وصل إلى السكن الجماعي نزيل

جديد .. مصري ، حتى يصبح المطلوب منك هو أن تكــون طيبــاً ومرحــاً وابن نكتة، مثل أبطال المسلسلات والأفلام والمسرحيات المصريــة ..! هكــذا أجد نفسي – يا صديقي العزيز – مدفوعا من جديد إلى لعب الـدور ذاتـه ، المهرج، مهما حاولت الانسلاخ عنهم ، فلابـد أن يبقـى مـني شـيء صـالح للاستعمال ، ولو كمنشفة ، أو شماعـة يوميـة يعلـق عليـها الآخـرون همـوم وحدتهم الفارغة .

ولكـن .. وفي كـل الأحـوال .. لـدي وقـت لإنجـاز مشـروعي الكبــير في الكتابة.. كتابة الاختلال .. مادامت هي معتصمي الوحيد . فهنا ، والآن ، فقط ، ومع هذه الأوراق ، أستطيع أن أرى وأسمع نفسي بلا خجــل .. ثـم أن الموضوع ، الذي أود كتابته ، يبدو مثـيرًا جـدًا .. إذ يكفـي أن يسـتعيد المرء لحظات سابقة كانت عامرة بالنشوة ، حتى يجد نفسه في قلـب العـالم الذي ألفــه دون حاجــة إلى الدخـول في عـالم الغربـة المظلـم الـذي لا يعرف عنه شيئاً .. فما أجمل الكتابة حين تبعـث الموتـى وتقـرب الأمـاكن والناس ، وتنفى الحاضر الممل .

# ٦

الإسكندرية ..

- بدون تاريخ مثبت ! -

الصديق العزيز جداً ..

ولا تدهشنك هذه الصيغة التي أناديك بها .. لك لأنني ، وكما تعرفني ، أمتلك القدر المعقول من الطيبة الساذجة التي تغدو في زماننا المضطـرب هـذا دلالة على الغباء - الذي يؤهلني لاعتبار جميع البشر أصدقـائي المقربـين ، دون الوصـول إلى العمـق الـلازم في مثـل تلـك الأحـوال ، وهـو نفسـه القـدر المعقـول، الكـافي ، بـالضرورة ، لجعلـي صيـداً ثمينـاً لهـواة جمـع الدمـــاء والأعصاب البشرية المحترقة وبيع جلودها في سوق النّخاسة!

ثم أنني أعتبر قراءة كلمات دونـــها شـخص مـا - يعـرض فيـها ذاتـه أو يعرض بها أو يعارضها - هي نوع من التواصل الخفـي أو اللقـاء الـودي ما بين أصدقاء أعزاء جداً .. وإلا فمن ذا الذي يمكنه أن يُلقـى بمكنـون نفسـه هكذا هباء بين يدي أي شـخص ليقرأهـا دون أن يفـترض فيـه إمكانيـة أن يكون هو الصديق العزيز جداً .. ولو للحظات ؟!

ولا بـأس..فقـد أطلـت في التقديـم والتـبرير..لكنـها ملاحظـة وددت لـو أكتبها ، لا أدرى لماذا.؟ ، وكتبتها !

بل أنني لا أدرى - حتى - لماذا جلسـت في مثل هذه السـاعة المتـأخرة، لكي أكتب لك عني ما سوف يصبح غداً ماثلاً أمامي بوصفه ماضياً مستعاداً أو موقوفاً ، تستعيده عيناك ويبعث فيه عقلك الحياة بالقراءة بدلاً عنى. !

قد ترى أن ما كتبته حتى الآن ليس سوى مقدمة أطول من اللازم ، وقـد أوافقك ، لا ..بل أنني أكاد أذهب إلى القول أن معظم ما كتبتـه في حيـاتي ليـس سـوى مقدمـات متتابعـة لكتابـة مـا ، قـد أفكـر في جمعـها يومـاً مـا أجل ..هـــي مقدمـات لا أكـثر.. مـا دامـت لا تـؤدى إلى الدخـول في صلـب الحكاية .

والحقيقة أنني لا أستطيع القول أن هناك حكاية ما تلح علـيّ روايتـها..

كل ما أعرفه أنني - كما قلت لك - أريد أن أكتب .. أن أمارس هذا الفعل المقدس ، الذي قد يجهل الكثيرون أية متعة يقدمها إلى من يقوم به، تماماً مثلما هو فعل القراءة، على الرغم مما هو قائم من فوارق ما بين الفعلين المرادفين لفعلى الخلق والمعرفة ..

فالكتابة ، على أقل تقدير ، هي البديل المقبول للجنون.. فأن تجلس لتكتب أفضل من أن تجلس لتحادث نفسك بصوت عال .. والكتابة هي الوجه الآخر ، التقني ، للحديث ، والكاتب مثله مثل المُحدث أو الراوي - وأيضاً الممثل والمغنى - لا يفعل في أغلب الأحوال سوى أن يبدد وحشة صمته ووحدته هو.. قبل أن يفعل ذلك مع الآخرين قراء ومستمعين أو مشاهدين . فإذا كانت الكتابة ، الفن ، هي نوع من التطهير أو العلاج النفسي للمتلقي، فهي أيضاً كذلك بالنسبة إلى المبدع أولاً وقبل أي شئ .

ولكن أن تكتب..لابد أن يكون لديك ما تريد قوله عن طريق الكتابة، والكتابة بالذات، وبخاصة في مثل تلك الحالات التي يجتمع فيها إلى المرء أكثر من طريقة للتعبير يجمعها المسرح في كل مركب، ففي مثل هذه الحالة تصبح الكتابة الشخصية ،أو الروائية ، اختيار حاسم .

ومن يمارس مهنة المسرح ـ مثلك أو مثلي ـ لابد وأنه يعرف أنه يظل يعيش حياته مغترباً - إلى حد بعيد - عن ذاته الحقة ، حيث يميل المسرح جهة كونه فناً موضوعياً واسع التجريد مهما حاول صاحبه أن يصب فيه من روحه، وبالتالي فإن فنان المسرح الذي يبدو للناس أكثر الفنانين انبساطية وانفتاحاً إلى الخارج .. إلى الجمهور الذي يتلقى عمله في كل ليلة، هو في حقيقته أكثرهم انطواء على ذاته وآلامه الشخصية ، صحيح أنه كتلة ممتلئة من المشاعر المختزنة والصور والخبرات المتراكمة، لكن كل هذا ليس سوى كتلة بلا ملامح محددة، بلا هوية ، وهو حين يُلبس شخصياته - كتابة أو تمثيلاً أو إخراجاً - بعضاً من مشاعره وانفعالاته المخزونة مثلاً ، فهو لا يفعل سوى أن يلعب دوراً ، أو أدواراً لا أكثر ، ولا أقل .. ونادراً .. نادراً ما يكون هو ذاته !

هكذا قد أجد مبررا للكتابة .. لكنه بكل تأكيد مبرر غير مقنع لأي شخص عداي.! فما ذنب القارئ في كوني قد اخترت المسرح دون سواه

حرفة أو طريقة للتعبير . إنها مسألة ذاتية محض ، لا تعني مخلوقاً آخر في العالم .. وإذن .. عليّ أن أجد المبرر الكافي الذي يتساوى في درجة قبوله والاقتناع به الجميع بما فيهم أنا شخصياً .. فما هو هذا المبرر يا ترى !؟

بالقطع أنا لا أريد تصوير حياة جماعة أو طبقة أو فئة معينة من الناس في بلادي ، فلم يعد هذا يهم سوى كتاب سينما الواقعية الجديدة الباحثين عن توابل الإثارة ، وأيضاً فأنا لست معنياً برصد فترة تاريخية بعينها.. ولا بتحليل حالة نفسية أو اجتماعية بذاتها..!

كل ما أعرفه أنني أريد أن أستريح من هذا الوجع الذي ينخر كياني .. وجع الكتابة ، لكنني كلما شرعت في كتابة ما أشعر أوجاعا أخرى أشد إيلاما تنخر عظام رأسي ، الذي يتحول في ثوان إلى كرة ساخنة ، مشتعلة بالجراح " كأنها الجمرات طازجة " ، و لكن الأمر يزداد صعوبة ، يوماً بعد يوم ، إلى الحد الذي يجعلني أتوقف عن هذا الجهد الذي لا يفعل سوى أن يتلف أعصابى ويدمر وقتى هباء .

ولكن هيهات .. فالكلمة قدر التعساء ، أما السعداء فهم لا يكتبون .! – هكذا يلخص برنارد شو المعنى الخاص لمهنة الكلمة ، أو القلم ، كما كان يسميها القدماء قبل اختراع الطابعات والكمبيوتر الشخصى ! –

تلك حقيقة لا يرقى إليها شك ، ففيما عدا ما قد يوحي به المعنى السطحي لمهنة الكتابة والكاتب ، والمعمول به في أروقة المحاكم والدواوين الحكومية وما شابه من أعمال تستخدم فيها الكتابة وسيلة فوتوغرافية لتسطير التقارير والأحكام والأخبار نسخاً طبق الأصل .! فيما عدا ذلك تصبح الكتابة فعلاً خارجًا عن المألوف ، وبالتحديد عندما يكون الخيال والأحلام والهواجس وما شابهها من الهموم وشوارد الفكر هي المصادر التي يستقي منها الكاتب مادة عمله ، إذ يكون عليه في هذه الحالة أن يشتغل على ما يسمى بالعصب العاري ، عصب الإبداع والخلق على غير مثال .

# ٧

سان بطرسبرج : أغسطس /١٩٩٠
وهكذا أنا يا صديقى العزيز جدًا ..
- يا شبيهى ، والموطن الأصلى لكل عيوبى -
هكذا أنا .. كلما انكشف النور بعقلي ذات ليلة ، حسبت أنها النهاية، نهاية أوجاعى المُرة .. فى مثل هذه الليلة تقول لى نفسى :

" هو ذا أنت تذهب دومًا إلى درب الندامة .. تختار الموت البطيء .. مسرعا نحو نهايتك.! لا تقل لي إنها لعنة الصور ، الرؤى ، التي تملأ روحك ، فلا تجد لها مكاناً سوى المسرح تضعها هناك .. وكأنك عصفور غرير يضع بيضاته فى جحر الثعابين . !

واعذرني .. قد أقسو عليك في كل مرة تفيء فيها إلي ، لكنه حق المواطنة.. ألست أنت صاحبي . وانظر .. ها أنت تنساني وتغيب عني في غيبة هذا البناء الغامض ، ولا تجد لي مكاناً ، حتى في أحلامك ، منذ قررت العمل على هذه المسرحية الصغيرة " كاني وماني " . صحيح أنها كتابة ذاتية وضعت فيها تجربتك المريرة مع مؤسسة الزواج الاجتماعية الفاشلة ، لكن هذا لا يعفيك من ذنب الغياب عن ذاتك .. وعلى الرغم من هذا آتيك في هذا الصباح الملون ، بلون حلم جميل أزاح عنك - ولو إلى حين - سحابة الهم المسرحي الثقيل ، وألقاك وحيدًا ، متوحدًا ، رائعًا، مثل كل تلك المرات التى تكون فيها أنت بدون قناع المخرج البغيض . !

فهل لك أن تقول لي : أي متعة تحملها إليك هذه الحرفة ، التي تتحول، عندما لا تمارس بصورتها الصحيحة إلى حرفة قذرة .؟ ولا أظنك تعرف الإجابة .. فلا متعة هناك ولا شيء سوى التلذذ المرضي بما يصيبك من التورم عند مطالعة ورقة صفراء مزينة بصورتك ، وبعض العناوين التافهة عن إبداعاتك السائرة إلى زوال .. فما يظهر في الحقيقة على منصة التمثيل ليس سوى نسخة مزورة عن تلك الرؤى ، التي تظل تحلم بها طويلاً قبل العرض .. فاسمع:

هي الكتابة ولا مفر .. هي الكتابـة ولا شـك .. الملجـأ الأمـين .. مسـرح الرؤى الحقيقى .. أكتب .. أكتب .. أكتب .. "

وهكذا – يا صديقى العزيز –

كلمـا تصـورت أنـنى قـد ملكـت ناصيـة النفـس ، و اسـتقرت بـى نيـة الكتابة . يأتيني هذا الصباح الرمادي ، الذي رأيته كثيرًا يسقط فوق الـروح مثل مطرقة غاشمة تطيح بالنوم الجميل ، أخـا المـوت ، فتفاجئني نفسـي بأشواك الظن تزرعها – من جديد – في حلقي الجاف ، وتروح تطن برأسي طنين الانسحاب .. تسألنى :

" وهل لي أن أسألك .. ما تلك الكتابة التي تتمناها ، وتقترفها أحيانًـا ، وكأنـها الفعل المحـرم ، بدافـع غـامض لا تـدري مصدره .؟ فكلمـا قـرأت كتابًا ، أو روايةً ما ، أيقنت أنه لا فائدة من كتابـة تكتبـها أنـت .! فـهل تكتب إلا عن نفسك .؟ ومن يقرأ .؟ "

أكاد أستسلم لبواعث الكسل ، والتراجع ، اللا فعل .. أقول صحيـح .. ماذا علي أن أفعل لو أصبحت الكتابة هي أيضًا شـيئًا بـلا جـدوى ، ككـل الأشياء فى حياتى ..؟

ولكن هيهات يا نفـس الظلمـة والارتيـاب .. فليـس لي سـوى الكتابـة ، تسـجيل حركـة الـروح وتحـولات النفس المتموجـة علـى منحنـى الوجـود الخطر .. وقد يـأتي يوم ليقرأ شخص واحد هـذه التموجـات المكتوبـة ، أو هذه الكتابـة المتموجـة .. لـيرى إلى أي مـدى كـان من الصعـب أن يعيـش شخص ما " في زماننا المضطرب هذا " بعينين مفتوحتـين وعقـل صـاح غـير مغيب .. ثم أنه إذا كان المـوت ، هـذا الـذي ترتعبـين منـه يـا نفس أيمـا رعب ، حادثًا مروعًا .. فلأنه ليس لميت أن يتـذوق طعـم الأشـياء .. ليـس لميت أن يكتب ، أو يقرأ .!

## ٨

سان بطرس برج في ٢٢/١٢/١٩٩٠

- حلم ! -

فلما جمعونا صفوفًا لانهائية بجوار باب الجوع الكبير .. كان لابد أن يتكلم أحدنا بالحقيقة في وجوههم ، أولئك الذين أرضعونا لذة الصمت الطويل ، والخجل من عورة الذات ، والرعب أمام الكبار .. لكن الحيرة طالت بنا ، إذ لم يكن لأي منا أن يدرك في نفسه القدر المناسب من الشجاعة لكي يرتفع فوق الأعناق ، ويقولها ...

حتى جاء يوم الأحد السابع من أيام الغربة بعد الأخيرة .. وسمعت صوت القدر بقلبي .. فخلعت نعلي ، واعتليت كتف جاري غير مبال .. ولم تمض سوى لحظات حتى أصبحت نقطة المركز بين الجمع ، وفتحت فمي لكي أتقيأ الحقيقة بوجه الكبار من كل صنف ولون :

نحن .. هنا .. الآن .. أجل نحن أبناء الجيل الأخير .. من جاءوا إلى نهاية العالم للشهادة على أن التعاسة والبؤس هما قدر البشرية الأخير .

نحن جيل الصمت .. من جئنا بعد أن فرغ القول ، ونفذت المعاني .. جئنا نشهد موت الفلسفة والفن .. والموت الأخير للكون العجوز . !

قلنا فلنفعل مثلكم .. ولنكتب . فما كتبنا سوى الصمت .. ففقدنا بكارة الكلمة ، وأمسينا محض بغايا في سوق عالمكم الفاسد ، الذي لا يقيم وزنًا لأي شيء ، لأنه لا شيء يضاهي قذارته ، فبارت بضاعة العهر .. ومن يبيع الماء في حواري السقاءين .؟

نحن الموتى قبل الميلاد ، المولودون بعد الموت .. الذين لا تجدي شهادتهم ، فليس هناك من سيأتي ليسمعها ..

فما ترون بنا .. افعلوا ، إلا الصفح والمغفرة ، فذا عقاب لا نتحمله .

ولم أدر إلا هدير الجموع يسحق صوتي : العفو .. المغفرة . ! ، وهويت ، وقد تخاذل من تحتي كتف الجار ..

ورأيتني أغوص في فراغ سحيق .. يغشاني نور ماحق .. وتحوطني ، عن يمين وشمال ، خضرة رائعة ، وصنوف غير موصوفة من النعيم ..

فأدركت أنه قد حق العقاب علي أنا وحدي .. وأنني لفي نعيم مقيم وبئس المصير .!

# ٩

سان بطرس برج

بعد منتصف ليلة ١٩٩٠/١٢/٣١ ..

في هذه اللحظة ، التي ينجلي فيها ضوء عام جديد ، ويأفل فيـها نجـم عـام مضطرب ، هـائج مثـل حصـان بـري سيئ الطـالع .. هـذه اللحظـة الشعائرية بالذات .. هل يمكن أن أتوقع ميلادًا جديدًا ، فيما أنا واقف هنا على أعتاب مرحلة جديدة من حياتى ، التى سادها الاضطراب والتشوش.؟

حسب البيانات المثبتة في بطاقة الأحوال العائلية ، كان العام ١٩٥٦ هو عام ميلادي الأخير كإنسان يحمل الأوصـاف الحاليـة .. ومـن قبـل كـانت حياة الروح - كما أتخيل - في ثوب عصفور صغير شاء لـه قـدر التحـول أن يسقط عشقا في رحم امرأة طفلة من نساء الغجر الذين سكنوا منطقة اللاهـون على الحدود الفاصلة بين الفيوم وبني سويف ، قبل أن ينتقلوا للحياة علـى طرف الصحراء الغربية ، على ضفاف بحيرة قـارون الرائعـة ، وحتـى قـرر أبوها وأخوته الرحيل إلى القـاهرة للعيش علـى أطرافـها ،تمـهيدًا للاندمـاج والذوبان فيها نهائيًا .!

وحتى العام الخامس بعـد الـولادة ، فإنني لا أعـي شـيئا مـن تفـاصيل الغيبوبة المؤقتة التي شملتني في أحضان تلك المـرأة الطفلـة الرائعـة ، الـتي قدر علي أن أعشقها - فيما بعد - بصورة سرية بعد ما تأكدت من أنها قـد صارت لى أمًا وحاضنةً ومربيةً .!

أما فيما بعد فقد بدأت المرحلة الثانية من حياتي الأرضية الفانية مطابقة لتلك الفترة المضطربة ، الزاخرة بـالأحداث والتناقضـات الـتي عاشـها هـذا الوطن ، الذي كان هو العالم بالنسبة لي حتى وقت قريب .. فخلال الأعوام التالية ، وحتى نهاية عـام ١٩٧٠ لم يكـن هنـاك سـوى الأسـاطير وأحـلام اليقظة .. أساطير وأحلام البطولة الدائرة كلـها حـول شـخص هـذا الرجـل الخارق " ناصر " أو " بابا جمال " ، الذي رضعنا اسمه في المدرسة الأولى . حتى جاء يوم الفطام ، الذي خرجت فيه ، أنا الصـبي الغريـر ، أبكـي ، مع الجموع الهادرة ، على شاطئ النيل القريب نرجوه ألا يتركنـا ويتنحـى

عنا في تلك الأيام العصيبة التي تمزقت فيها خيمة الحلم الدافئة ، وأصبحنا كلنا في العراء ..

وفي الأعوام التالية لرحيل رجل الأقدار هذا ، كان عليَّ أن أتأهل لخوض معركة الحياة العملية . لكن لم يسعفني الوقت ، ولم أكن أملك الجرأة ، لكي أكتشف حقيقة إمكانياتي ، وطبيعة ميولي الشخصية ، حتى أنني - مثلاً - تخبطت كثيرًا في اختيار الكلية الجامعية المناسبة .. فرحت أتردد ما بين الكليات العسكرية ، وكلية التجارة ، حتى استقرت بي الصدفة في معهد تجاري ، تحول فيما بعد ليصبح هو كلية التجارة وإدارة الأعمال التي نلت منها شهادتي الجامعية بتقدير جيد - دون أن أعرف كيف ..؟ -

كنت أكتب الشعر العاطفي الساذج .. أقرأ كثيرًا .. أخالط أعضاء الحركات السياسية اليسارية في الجامعة .. ولكن أبدًا لم أعرف ماذا أريد ولا إلى أين أسير ..؟ هكذا وجدت نفسي في قلب عالم المسرح الشائك ، ولم أكن سوى مشروع شاعر وضع القدر في طريقه مجموعة من هواة المسرح كانوا يعملون في بدروم أحد قصور الثقافة - في حي جاردن سيتي - .. فانخرط معهم بلا سابق إنذار ..

وخلال عشر سنوات من العمل والبحث والقراءة والدراسة من جديد ، عشت المرحلة الثالثة من حياتي الأرضية ، أجمع النجاحات الصغيرة ، حتى أصبح لدي هذه الصورة الأخيرة لفنان مسرحي صنعته الصدفة ، وألهب العصاب - الوراثي - عزيمته ، فعمل على إشعال النار في كافة عناصر النقص والضغط النفسي والاجتماعي ، من حوله وفي داخله ، هالة نجاح صغيرة ، منورة .. ومن قبل كانت الكتابة قد اتخذت مكانها في حياتي منذ أن جلبت لي تقدير المعلمين في المدرسة الأولى ، وخلال سنوات المراهقة الطويلة ، فقد كانت هي علامة تميزي بين أقراني ، الذين كانت قوتهم ومهاراتهم البدنية تثير غيرتي وحنقي نحوهم ..

واليوم .. فإن نظرتي نحو هذه الأشياء .. الكتابة .. المسرح .. تبدو مختلفة تمامًا عن تلك الأيام الخالية من الهم والمسئولية .. فهاأنذا أقضي الأيام الأخيرة الباقية لي في مدينة الشياطين هذه .. أعيش حياة صعبة ما

كان يمكن أن أحلم بها لولا تورطي في عالم المسرح الشائك : فبإتمام هذه الدراسة المتأخرة ، أكون قد أتممت تلك المرحلة نصف المعتمة من حياتي استعدادًا للغربة الأخيرة لى فى هذا الثوب الآدمى الخانق .

ولحسن الحظ أن هوسي المفاجئ بالمسرح لم يقطع ارتباطي نهائيًا بالكتابة ، لكن يبدو أنه سيكون عليَّ أن أعيد النظر في كل ما كتبت يوماً ما لكي أصنع منه شيئًا ذي قيمة ، وكذا سيكون علي إعادة النظر في فكرتي وتجربتي الضئيلة في المسرح ، وقد أنجح في صياغتها في كتاب يكون عنوانه المناسب " ضد المسرح " ..

وهكذا أقول اليوم إنه ، وعلى الرغم من هذه المسيرة الشاقة ، الممتدة لمسافة خمسة وثلاثين عامًا ، فمازلت غير قادر على مسايرة الحياة الواقعية كما ينبغي .. قد يكون لدي قدرات أدبية ، أو فنية ، خاصة ، وقد أكون فخورا بها ، لكنني أفتقد تماما للمفتاح السحري .. مفتاح الدخول إلى حياة الناس .. حياة كل يوم .. هذا الذي يسمونه بالذكاء الاجتماعي .. !

لدي جناحان أطير بهما فوق السحاب .. لكنني لا أملك قدمين أسير بهما على الأرض ..

أرى بعين القلب دروب ومجرات عالم الهيولي اللا منظور .. لكنني أجهل الطرق والدروب الأرضية المكشوفة ..

أتوق إلى اجتذاب الأرواح الطليقة نحوي .. لكنني لا أستطيع التخلص من شعوري بوجودهم الثقيل حولى ..

هكذا يقول العصفور المتحول ، في ثوبه الأرضي الملوث .. فلا هو بمستطيع الحياة كعصفور طليق ، ولا الرضى بصورته الأرضية إنسانًا من لحم ودم ، سجين الرغبات والعادات الاجتماعية التافهة .. ولا شئ يكتمل. !

## ١٠

سان بطرس برج: يناير ١٩٩١

وما هذه القوة التي تمتلئ بها روحي هذه الأيام .؟

حتى أنني أكاد ألمس بيدي فيض النور الذي يغمرني ، ويعطل نشاطي البدني ، دافعًا إياي نحو مساحات لزجة ، ناعمة ، من الهدوء والرضا..

هذا في الوقت الذي يعمل فيه عقلي ، بشكل حيوي ، على إعادة ترتيب أفكاري القديمة ، ويفتح لي آفاقا جديدة للتفكير .. فهذه هي أطروحة بحث الدكتوراه اللعينة تكاد تنتهي .. وهناك أكثر من خطة لمشروعات كتابة أدبية وفلسفية مقبلة .. بالإضافة إلى كتابات قديمة انتهيت من تجميعها في مجموعة تحمل عنوان - مختارات من الديوان الغجري - .. عدا بعض القصص القصيرة ، وكراس فلسفي بعنوان - فن الوجود - .. هذا كله بجانب التحضير لمعرض قريب ، قد يكون في مارس المقبل فى دار الصداقة القائمة على شاطئ فونتانا .

.. ..

وإذن ما هى الحقيقة .؟

هل هي حقيقة الروح .. أم الحقيقة المجسدة ، اليومية .؟ فبين هذه وتلك يختل وجودي المتأرجح على حبل الغربة المشدود حول عنقي ، كأنه الموت باردًا ، بلا لون ، أو رائحة .. بين إشراقات الروح المصحوبة بخمول جسدي ، ونشاط ذهني متوتر ، وبين صحوة الجسد الجائع ، فجأة ، وغفوة الروح المرهقة ، وتشتت الذهن ..

ولا سبيل إلى الهدوء .. فلا بد من اقتراف بعض الخطايا الصغيرة ، التي تغلق أمامنا بوابة العمل .. لا شيء يكتمل .!

فأنت لا تنزل النهر ولا مرة واحدة .. وبين اللحظة والأخرى تتغير مياه النهر ، وتموت فيك خلايا ومشاعر وأفكار لكي تولد أخرى .. فما أنت سوى مقبرة تتراكم فيها اللحظات الميتة .!

## ١١

الصديق العزيز ..

أكتب إليك في هذا الوقت ، الذي نحن فيه من ليالي ربيع ١٩٩١ .. وقد فاض الزمان بكل مخلفاته علينا ، وبقينا - كما نحن - بين شعوب المؤخرة..

أكتب إليك من مدينة الشياطين .. من المنفى القريب من البحر .. من على مقعد وراء طاولة في بيت من بيوت الحياة الجماعية المنحطة .. في زمن مشوه ، ومن قلب بيت للعناكب ، مازلت أحلم ذات الأحلام الوردية بغد أفضل أعرف جيدًا أنه لن يأتى أبدًا ..

ومازلت أتعلق بكافة أوهامي القديمة في الكتابة والشعر والفن .. فيما تغوص قدماي في وحل التفاصيل اليومية الكافية لتحطيم سفن الأحلام قاطبة، وليس سفينتي وحدي ، لكنني أتصور أنني سأصير إلى النضج قريبًا، وسأغدو أكثر حكمة ، وأوسع إدراكًا ..



القاهرة ٢٩ /٦. /١٩٩٢( )

وأخيرًا .. أنا ..هنا .. الآن ..

هنا لا شيء يتغير تقريباً .. أو هكذا يبدو لي وللملايين من أمثالي السائرين في ظل القطيع يحملون نفس الاسم والصفة والرقم .. المواطن فلان .. هكذا كنت أفكر ، فيما كان الضباب الترابي الكثيف يأبى الرحيل عن وجه المدينة ، التي منحها ركود الغبار وثقل ظله جهامة وكهولة طغت على ملامحها منذ سنوات ليست بالبعيدة ؛ يمكنني أن أحصيها في حزمة تقترب من العشرين تقريباً ..

قلت : عودة .. فياليتنى .!

وكأي مرة من مرات العودة السابقة ، كانت الرحلة .. وقتاً مشدوداً ، يكاد ينقطع ، وتنقطع معه حبال الأعصاب النافرة .. والآن ما الذي يمكن أن يتغير ، وقد عدت وفي القلب بقية من مرارة محترقة ، وتحت الثوب الرسمي ظل الجسد ، الذي ذاب غربةً واشتياقًا ، وفي الجيب تلك الورقة التي استغرق البحث عنها خمس سنوات كاملة ، شهادة الدكتوراه .. أجرجر حقائبى ، أوراقى ، أطياف الذكرى ، رايات الرجولة .. لا أحد هنا ينتظر عودتي ..؟ فهل لي من وطن ..؟ وما الوطن .؟ .. لغة الأهل ، أسماء الشوارع ، بطاقة الهوية ..؟ أم مسكن الروح . فضاء العقل ، مساحة الجسد .؟ و - أيضاً - مقبرة الكتابة .؟

---

( ) هذه آخر الوثائق المؤرخة ، ففيما بعد وصول المذكور إلى الوطن تخلى عن عادة التأريخ .. كما أن النصوص الباقية الخاصة بحياته في بلاد الروس وجدت في أوراق أخرى ، ستظهر في حينه، لدواعي فنية ..

ر . ا .. المحترم

# ١٣

الإسكندرية ..

أريد أن أكتب ..

آه .. ما أثقل هذه الأيدي .. يداي .. كم يؤلمني جريان الدم فيهما .. دمي .!

هذه اليد وذلك الدم .. ترى هل هما علامة موتي المؤجل دائماً على خارطة العمر الممزق بين المدن .!؟

ليل موصد دون الرغبة .. دون النوم ، ودون الكتابة ..

ثم يأتي نهار رصاصي ، باهت .. تلك هي علامة النهاية .. أجل ..

كل الأشياء تفلت من يدي إلى خواء .. ثمرة العقل ، رفقة الطريق ، ثمن اللقمة ، أبناء الجسد ..

ولا شيء يكتمل .

آه يا صديقي الصعلوك الفقير ..

ما أتعس قدرك .. قدر الكتابة .

عندما تتوهم أنك بمستطيع أن تحيا حياة طبيعية مثل الآلاف من البشر البسطاء ، العاديين .. ولكنك لا تقدر ، رغم كل هذه الحيوات المصطنعة التي عشتها بين الكتب ، وعلى منصات المسرح ، وفي قاعات الفن .. فأنت تنسى أن هؤلاء الناس يعيشون الحياة ، أما أنت ، ومن هم على شاكلتك ، فتكتفي بصنعها ، أو التفكير فيها .. وما أشد الفارق بين الطبيعة والصناعة.

والآن ..

هل لك من قرار ..؟ هل لأحد كفتيك أن يستقر .؟

أم أنك ستبقى معلقاً بين فضاء الحرية ورمال الواقع .؟

هل تفلح في اختيار طريقة للحياة ، تكون ما تكونه ، لكنها طريقة .. واحدة .. واضحة ..؟

هذه المرأة التي حطمتك وحطمتها ، هل تقوى على انتزاعها من بين

ضلوعك ، ومن حياتك كلها بضربة واحدة .؟

وتلك الحرفة التي لا تقوى على ممارستها الآن ، هل تقدر على استبدالها بشيء آخر ، نافع ، تفعله .؟

هذه الحياة المرهقة ، المكلفة ، هل يمكن أن تعيش ما تبقى منها ، قادرًا على الوفاء بمستلزماتها .؟

وإذا كنت لا تستطيع إجابة على أي من هذه الأسئلة .. فكيف لك أن تستمر هكذا بلا قرار ، بلا مغزى ، أو هدف .؟

أجل .. كيف لي أن أظل أحيا حياة العنكبوت ، المهووس ، الذي ينفق وقته وجهده في صناعة خيوطه اللزجة ، ينسج بيتًا ، وكلما صنع واحداً عاد ليلتهمه ، أو يلقي به إلى الرياح تمزقه هباء ..! حب هنا ، عشق هناك، طفلة هنا ، وآخر هناك ، مشروع اليوم ، وعشرة بالأمس .. ومائة غدًا .!

ياللرأس الضائع ، المتأرجح على بوابة الجنون .. لكم أود أن أتخلص الآن من هذا الذنب المزعج .. من وجودي ..

## ١٤

الإسكندرية .. صباح اليوم التالى ..

بالأمس وحين جلست مرهقاً في النصف المعتم من الليل ، أعاني هواجس القلق والإحباط المميت ، لم أقو إلا على طرح الأسئلة .. هذا الفعل الوجودي ، الذي أتقنته إلى درجة مفزعة .. ولكن ، وكما يقول الروس: " الصباح أكثر حكمة " ويقولها أهلنا : " الصباح رباح "..!

هكذا أفيق من موتي الأخير ، لأجد نفسي محملا بالإجابة .. نعم للحياة وللحرية وللفن .. نعم للجنون .. لا لكل ما هو عادي ، مبتذل ، حتى ولو كان الثمن هو الموت جوعًا .

عليَ إذن - وبصورة ما - أن أستثمر هذه المعاناة في شحن طاقتي الإبداعية تجاه مشاريع العمل التي وضعتها لنفسي .. فهذا هو التعبير الوحيد عن رغبتي الكامنة في مواجهة الموت اليومي .. هذا هو السبيل الوحيد للنجاة .

وفى لا مكان ..

فى ليلة شتائية بلا ملامح من ليالى العام الجديد ..

كانت الفرصة مناسبة جدًا لكي ينكشف غطاء العقل ، الذي كان غليانه الداخلي قد وصل إلى حد لا يمكن بعده لأي غطاء الصمود أمام فورانه ..

كانت الفرصة مناسبة لكي تنفرج قليلا قضبان الصدر الضيق بالقدر الكافي لكي يمتد عبرها طرفاً من جناح عصفور القلب المحترق ، الذي طالت نومته داخل أعماقى ..

الآن سأتطهر .. أتخلص من علتي المزمنة .. وأتوحد معه عائدين إلى العش الآمن .. موطن الروح القديم ..

هيا أيها العصفور القديم ، ما أوسع كرمك ، فلولا صوتك ونشيدك الدافئ، وكلماته الملونة ، ما تعرفت من جديد على موضع روحي في هذا

العالم – المتاهة ، الذي سقطت إليه سهوًا من رحم أمي .

سأقول من الآن فصاعدًا قولاً يليق بكل عصفور أصيـل : لا لكـل فيزيقيـا قائمة .. لا للمادية الغثة .. ومرحبًا بكل ميتافيزيقا مقبلة ..

بالأمس كان الأفق مفتوحًا .. وغداً يعود كما كان فسيحًا لا نهائيًا ..

## (١٥)

البهنسا .. مايو ../../.. ١٩.

- هنا رائحة موت .

- وهل للموت رائحة .؟

- ومذاق وملمس ، ولون

- إذن هو الموت قريب!

هو الموت ولا كذب .. وقد حل منذ زمن بالكيان المتعب .. هو الموت أدركه في فقدان الأشياء ملامحها بداخلي منذ عودتي من منفاي الاختياري ، إلى الوطن . هو الموت أتحسسه اليوم هنا .. في صحراء الأموات تلك ، المترامية بلا نهاية فيما وراء الحقول ، والبيوت الطينية ، والممرات التي تعج بأطفال عرايا يأكل الذباب أجسادهم وعيونهم في نهم .. هو الموت قد غافلني متسللاً بين خلايا الجسد المرهق ، يمتص ما تبقى من رحيق الحياة ، ويتمدد فوق منافذ الشعور يُبليها شيئًا فشيئًا ..

فهل هذه هي النهاية التي دفعت لأجلها ثمنًا غاليًا من عمري وجهدي.. هل ينتهي الأمر بي إلى مجرد دراسة شهرية بمجلة المسرح تحمل توقيعي الجديد ، المسبوق بحرف - د - ، وبعض المحاضرات المتناثرة ، ألقيها هنا أو هناك .. ولا شيء بعد سوى صعلكة كاذبة ، وتسكع مراهق على مقاهي وسط المدينة ، وآخر الليل أنتهي إلى وحشة وملل وزمن ضائع في سكن الوحدة الجديد .. هل هذا ما كنت أطمح إليه ..؟ وأين قائمة المشروعات الضخمة للكتابة ، والترجمة ، والإخراج ، التي وضعتها قبل وصولي ..؟

## ١٦

المعادي .. صباح يوم حار ..

ولم يكن قد مضى على نومي الهش أكثر من ساعة ، بعد ليلة مشوشة حاولت فيها استجماع قوتي ونشاطي لإنجاز دراسة عن الممثل في المسرح الشرقي ..

لحظة كاشفة بدا لي فيها أنني أمسك بطرف ما يبث النار في هواجسي ، ويبدل حالي من النقيض إلى النقيض .. فمنذ فترة يعاودني خاطر محبط يحاول أن يشي إلي بأنه مازال ينقصني الكثير ، وأن حصيلتي لا تكفي ، وأن الوقت يفر من بين أصابعي ، ولا يسمح لي حتى بقراءة ما كان يجب قراءته من زمن ..

هاجس مريب يهز قناعتي في ذاتي وإمكانياتي .. يتهمني بالكذب ، وبأنني قد حصلت على مكانة لا أستحقها في عالم المسرح ، في سنوات قليلة.. لعله هو الصدى المزعج لما يقوله الآخرون ضدي .. وقد يكون مبعثه ترددي وعدم قدرتي على التواؤم مع العالم المحيط بي ، بما فيه هذه الأسرة التي أقمتها على حبال الوهم ، فذهبت بها نسمات الخريف .!

فمن يكون هذا الذي يدور بي ، كالشاة في سفود الشواء ، من أعلى إلى أسفل ، ومن النور إلى النار ، من المساء إلى الصباح ..؟

أهذا هو أنت يا أنا .؟

تمضي كالوباء تنثر الجراح ، وتعود تشيعك لعنات الضحايا ، تدفع بي إلى ساحة التعازي ، تدق صدري يداك الملعونتين ، تقتصان مني ، وتلتهمان ما تبقى لي من طاقة .؟

وليكن ما تريد .. هذا هو أنا بين يديك .. عاريًا عن كل أقنعة الوجود .. في شيء من كل شيء .. كتلة مشوهة بلا هدف .. شرير ..؟ ربما ، كاذب..؟ أحيانًا ، مختل .؟ دائمًا .. ، لكن هذا كله ليس بلا ثمن ..! ضحية هنا .. ضحية هناك .. وثالثة .. ورابعة .. جراح .. جراح بلا نهاية.. وكلها مفتوحة ، طازجة ، لا تندمل .. وهل تريد أكثر من هكذا معاناة لكي تكتب .؟

# ١٧

صبـــاح بلا ماض ، كأنه الأمس ، ..
ولاشيء تبقى لدي سواه: اللا شيء.
" لقـد تحطمـت السـفينة علـــى صخـرة التفـاصيل اليوميـة "..يقـول مایاکوفسکی ..!
فقد تحطم كل شيء على دفعات متتابعة بلا رحمة..
وهاأنذا أصحـو لأرى نفسـي في مـرآة الحـاضر المتسـخة بزفـرات المـاضي المريض..
حلم ناقص ، ورغبة مشوهة..إنه الجنون أعيشه راضيًا أو مرغمًا – ليـس يهم – لا طعم.. لا لون..لا رائحة .. لا حب .. لا أمل.. ، ولكن فقط ألف ألف لا.. ناهية.. مانعة..هن ما يقف بينى وبينى..!
إنه الجنون أن تعيش بلا سـبب للحيـاة ، بـلا دافـع حقيقـي يربـط مـا بينك والوجود.. أن تأكل حتى لا تسقط من الإعياء ، أن تظمأ ولا تجـد مـا تحب أن تشرب ، أن ترتدي فقط ما يجب عليك أن ترتدي بين الناس، أن تكون أبا على الورق ، أن تبدع ما تراه غير جدير بك ، لأنــه أصبـح عملـك مصدر قوتك .. فيما تعود في كل يوم إلى ذاتك خـــاوي الوفـاض فـارغ الـروح مثقـل الـرأس بملايـين التوافـه مجـدب الشـعور فـاقد الإحسـاس بذاتـك وبالوجود معا.
وفي مثل هذا الصباح النـاقـص..هذا الصباح ، الذي جاء ناقصًـا لا أدري لماذا .؟ يحق علينا السؤال .
صحوت بعد نوم ثلاث ساعات متقطعة ، مضطربة هي ما أفوز به غالبًـا في تلك الأيام التي تصحو فيها عزيمتي للنضال والعمل..الإبداع. فما يمنعنـا عن المضي في استكمال أسطورتنا الذاتية الخاصة ليـس هـو الكسـل أومجـرد التعب اليومي المعتاد ، ولكنه ضعفنا الشاذ في مواجهة مـا يضعـه الآخـرون من عقبات في طريقنا سواء بالتبجيل الزائف لكل مـا ننتـج ، أو بالتجـاهل القاتل. وفي كلتا الحالين فإننا غالبـاً مـا ننحـرف بـهذا أو ذاك عـن المسـار المخطط لتحقيق مقاصدنا الإبداعية.

## ١٨

وماذا بعد..؟

- أيها المهرج العجوز -..!؟

هاأنت تتأهب للسقوط - حتماً - أمام جموع البهاليل الذين احتشدت بهم ساحة السيرك ، وضاقت بهم الحلقة بعد أن تكسرت تحتهم المقاعد ، وراحوا يدورون كثيران معصوبة الأعين ، مسعورة القرون ، يدمدمون بأرجلهم ، ويملأ صرير أسنانهم سماء الخيمة الزرقاء..!

والآن.. - بعد أن استحال التراجع فجيعة ، مثله مثل السقوط سواء بسواء -

الآن..تُفكر بالهروب ، وتحاول أن تمسح عن وجهك مساحيق التنكر.

الآن.. بعد أن اكتشفت أن اللعبة ليست وهماً..ليس أمامك سوى أن تمضي فوق الحبل فاردًا ذراعيك بوجه الخطر الذي سعيت إليه. فقد مضى وقت الهزل ، وأصبحت ساعة النهاية بيد من لا يعرف المزاح. فهل تفعل.؟ أم انك ستعاود الفرار ـ إلى حين ـ متقنعًا بلون الصمت المتحامق.؟

## ١٩

الصديق العزيز جدًا ..

صباح الخير ..

ففي صباح مبكر جدًا .. أكتب إليك فيه من هذه الزاوية المعتمة ، التي لجأت إليها لكي ألتقط أنفاسي ، بعد تلك المطاردة الشرسة ، كأنها الكابوس ، التي تمزق فيها آخر ما تبقى من حبل المعاشرة بيني وتلك المرأة التى قررت – فجأة ـ القضاء على !

أكتب إليك .. للمرة الأولى فيما بعد المسافة الطويلة تلك التي قطعتها خروجًا عن الذات الأصلية الأولى ، ووصولاً إلى هذا المزيج المختلط الذي يغوص فيه كياني ، ومنذ أن قررت ـ مرغمًا أو بإرادتي ـ الحياة في جحيم الآخرين. !

لا..بل هي مسافة أطول مما ينبغي ، أو هكذا يكون شعوري بها كلما امتد القلم ليفتح " غرفة تذكاراتي السوداء " ، فأراها مليًا تمتد ما بين اليوم والأمس البعيد مثل جثة عبثية لا تتوقف عن النمو .

وإذن! هل أصبح من المستحيل أن أعود أنا الظامئ ، المشتاق إلى الألفة والرواء والسكينة ، إلى نفسي.؟

وهل صار محالاً أن أنعم ، ولو بلحظة عابرة من الوفاق الحقيقي بيني وبيني ، أو أن أعايش فطرتي التي نسيت ملامحها ، وأن أتلمس مدار وحدتي التي تشققت جزيئاتها وانشطرت لتفسح فيما بينها مواضع يسكنها الآخرون المحتشدون على طول مسيرة العمر القصيرة..!؟

هل يكفي القول وحده لنيل المراد.؟ أم أنها هي الكتابة مرة أخرى ، أو أخيرة ..؟

# ٢٠

مساء خاص ..

مساء للكتابة ، وقت خارج عن المواقيت المعتادة ، لا تحده عقارب الساعات.

لقد ولدت لأكتب..أقول لنفسي ، بينما يطالعني وجه المخرج يتراءى بين قناعي المسرح المبتذلين. ! أكان ولابد أن أخوض في أوحال هذه المهنة المبتذلة..؟ ومتى حدث هذا.؟ ولم ؟..

أتذكر تلك الليلة جيداً.. نصف وجه.. سيجارة رمادية مطفأة..قطرات حبر يابسة.. ساعتان قبل اندلاع النهار ، أنتظر بالقرب منهما نومي المتأخر، أعاني هواجس اليقظة الساخنة، أختبر الاكتمال.. وما العمل ؟

هل كان يمكن ألا أخطو تلك الخطوة إلى الخارج..خارج الذات الأصلية الأولى؟

وكان لابد لي - حينئذ - من إعادة صياغة السؤال ، بصورة أكثر شعرية ..! وعندما تجلى لي حضوره المدهش ، انفتحت أمامي طاقة التجربة - المحاولة - السحرية ، وشعرت يومها أن الطريق قد بدأ ، غير أنه كان ـ وياللعجب ـ طريق التيه ..بلا نهاية. !

كان هذا في العام الثالث وثمانين - ١٩٨٣م - .. وكان السؤال هو تلك العلامة ، التي وضعتني - من قبلها بأعوام - على ضفة الضد ، ضد كل ما هو رسمي..سائد .. ضد النظام. ! ، ولازال ينتظر إجابة محددة ..إجابة تختبر الاكتمال... ما العمل .؟

ما الذي يمكن للمرء فعله ضد ما يجهل .؟

أليس الجهل غربة ..؟ انقطاع ..ضياع في الفراغ اللانهائي..؟ فما الذي بيدك لتفعله ضد كل ما هو غريب عنك .. بعيد عن روحك .. مختلف مع مزاجك.. متناف مع رغائبك ، وتوقعاتك عن ما هو حقيقي..طبيعي..!؟ ضد كل ما هو غير قادر على إشباع حاجتك الأساسية في التعبير ، وفي الدفاع عن ذاتك المثقلة بهموم الصراع ، أو الفصام ، اليومي متنوع

الأشكال ، ضد الاستلاب والغربة المفروضة عليك سياجًا يمنع عنك حتى الماء والهواء.؟ هل نملك بإزاء هذه الصور المترادفة المتراكمة تحت راية الجهل ، سوى أن نخترق هذا المجهول الغامض القائم بوجوهنا .؟

هكذا كان الخروج الأول من الذات الأصلية إلى ساحة الصراع الدرامي أفتش فيها عن مساحة جديدة للحرية ، وللتحقق بعيدًا عن سطوة الأب ، الذي يلاحقني خلف كل جدار ، بوجه ـ أو قناع ـ جديد في كل مرة .! ولكن ..

إذا كان للكتابة أوجاعها الخاصة ، فإن المسرح.. هذه المساحة المشحونة بالتوتر والتحولات، المترفع بين أصحابه قدساً للتطهر أو مذبحاً للخلاص.. أصبح – بدوره – اليوم غريباً عن نفسي ، بعيدًا عن روحي ، في حين مازلت أرتبط به ، أو يربطني إليه ، بحبل الوظيفة الخانق..

فهل هذا لأني موقن أنه سيظل على حافة – إن لم يكن خارج – دائرة اهتمام الجمهور العربي؟! إذ ليس لدى أناسنا حاجة حقيقية للتعري الدرامي والمسرحي بخاصة من حيث هو فعل مجابهة عارية مكشوفة ما بين العرض والجمهور، مجابهة لا يمكن للوسائط الدرامية الأخرى مثل السينما أو التلفزيون القيام بها، وهم يخشون منه هذا الدور الشعائري الحي بالذات، وبالتالي يدفعونه لكي يصبح فقط حلبة للضحك دون اقتراف مشقة تلقي المضمون والفكر العميق الساعي إلى وضع المرآة أمام وجوههم بلا حياء.!

أم لأن المسرح ذاته قد انكشف بالفعل كشيء غير ضروري في حياتنا الخالية من أي مبادرة فعلية. المتنعة عن أية جدلية درامية ؟ أم أنني لم أعد بالفعل قادراً على الانتساب إلى مسرح كهذا مستأنسا ً، خانعاً ، هذا الذي لا يمكن أن يكون بكل مؤسساته سوى زهرة اصطناعية في عروة جاكيت النظام ، أو جزء من ديكور الحداثة والديمقراطية ، وهي وظيفة فضفاضة على كياني الضئيل .؟

وهل هذا هو السر وراء ما أدركه من أن الكتابة عن المسرح قد أصبحت فعلاً شاقاً، وبارداً في الوقت نفسه؟.. وأنني أصبحت أشعر وكأن مسافة ما تفصلني عن ما كان منذ سنوات قليلة هو الشيء الأهم والأكثر حميمية في

حياتي .؟

وكيف لي أن أجمع بين النقيضين في حياة واحدة.. الكتابة والمسرح..أي نظرة التأمل الشارد.. وفعل التجسيد الحي!؟ هكذا توقد في سماء العقل لحظات متقطعة، باقية من أزمنة حارة، وأخرى حاضرة مفعمة بالنشاط والحيوية.. تختلط جميعها أمام عين القلب المثقل بالهموم فترتبك نبضاته ويكاد يتوقف ، لكنه أبداً لا يمنحني هناءة الراحة.. فما زال الوجع مستمراً..

# (٢١)

هل تكون الكتابة هذه ، كتابة الـذات ، إذن غـير محاولـة لجمـع تلـك التفاصيل الفردية وعرضها أمام الجمع قرباناً للتطهر، ليـس لأنـها تفـاصيل حياة عظيمة تستحق التخليد ، ولكـن لأنـها - وببسـاطة - نبضـات حيـاة خاصة، متفردة، حاول صاحبها أن يرسمها هكذا خطـاً خارجـاً عـن حيـاة الكتلة أو القطيع، وعن إطار التشيوء العام في ظل حضـارة تسـعى إلى عزلنـا وتقسيمنا باستمرار ضد قانون الوجود، قانون الوحدة ، وحدة الأضداد ..

وإلا فما معنى أن يصر مخرج مسرحي علـى أن يكـون مـا يقدمـه للنـاس كتابة هو " أدب" وليس شيئاً له علاقة بالتخصص ، الإخراج ، هذا الـذي آل إلى أسفل سافلين بعدما أصبح مهنة مـن لا مهنـة لـه .. وأصبـح المخـرج مجرد قواد يوصل بين رأسين في الحرام .. الممثل والجمهور ..؟!

إنـه السـؤال المتكـرر تدعمـه مرجعيـة حديـث مولعـة بـالتخصص ، والتصنيف والتبويب ، كونها نتيجة شرعية لعصور التفرد ، والانفصال عن لحمة كل ما هو مركب ، موحد ، مؤتلف.

فالمخرج الحقيقى - رجل المسرح بمعنى الكلمـة - هـو عقـل مؤلـف بـلا قلم ، ومشروع ممثل يفتقد الجرأة ، وخيال مصمم منـاظر غير مُلم بـأصول التقنيـة الحرفيـة.. إنـه الكـل فى واحـد ، يحـاول الاكتمـال مـن خـلال الآخرين ، إذ يأخذ المسرحية ناقصة الأداء ، والممثل بـلا دور ، والمـهارات التقنية فى ذاتها دون الخيـال ، ليصنـع منـهم جميعاً وحـدة متكاملـة هـى العرض المسرحي . فإذا كتب أو مثل أو رسم .. فهو في هذه الحـال يمـارس حوالى ثلث قدراته فقط !

في الليل.. وحين تنسحب خطواتـي عـائدة، وتصبح وحدتـي واقعـاً مؤكداً بين جدران البيت الغريب ، المؤقت.. لا أجد شيئاً أفعلـه سـوى أن أصنع لي من بين الأوراق مرايا.. حينها تبدأ رحلة كل يوم في البحث عن إجابة السؤال نفسه ، متعدد الأوجه :

هل كان اعتقادنا صحيحاً في كل ما اعتقدنا فيه وأحببناه.. هل كـان صحيحـاً مثـلاً أن نعشـق صـوت أم كلثـوم ، وعبـد الحليـم حـافظ ، وفيروز !؟ وهل كان صحيحـاً أن ننفـق العمـر في القـراءة ، والكتابـة ، والسفر بين البلاد والأماكن ، ومراقبة الناس ، والانشـغال بمـا يحـدث حولنا ، والاستماع إلى نشرات الأخبار باهتمام!؟ .. هل كان صحيحا أن نكتب ..!؟

نكتب..؟ ماذا نكتب؟ والكلمات شـظايا تحـرق القلـب في خنـدق الوطـن المزدحم بعظامِ المآسي الجارحة، والقلـم منفلـت كـالموتور.. يسـقط مـن بـين الأصابع حرقةً وشجناً !؟

فمن ذا يكتب؟ وماذا يكتب!؟ وهل أكتب أنا سوى الموت ، وانكسار الحلم الجميل ، ووقع أقدام النهاية!؟ فياللكآبة يخترعهـا خيـال معتـم دام، لا يرى سوى النصف الفارغ من كأس الوجود الصـائر إلى نقصـان، أو هكذا يقول عني الغارقون في وهم السعادة، بعيدًا عن أشواك الكلمات ..هذه الكلمات التي أراها أمانة يلقيها القابض على مصير الوجود ذنبـاً ثقيلاً فوق ظهر من لا يعرف سر المديح، ولا يرتـدي نظـارة الوهـم أمـام شمس الحقيقة، من يرتضى الموت جوعاً، ولا يأكل بقلمه.

فهاأنذا أريد أن أكتب ولكن .. مهلا.!

من هؤلاء يخنقون سماء خيالى .!؟

أطفال قساة الملامح، يدقون أبواب الغد بأحذية ثقيلـة، لأسـنانهم صريـر مفزع ، ولعيونهم بريق واحد ليـس فيـه ثمـة شـئ إنسـاني بـالمرة.. أجلـس بينهم نغمة نشاز ، مجرد خيال أو ظل يـأتي مـن مـرآة المـاضي القريـب ،

يحاول الدخول إلى دائرة الضوء ، فيذوب ، يتلاشى إلى نسيان. !

وعندما يتأكد موتي، الح جثتي تتحرك، تتخذ مقعداً جانبياً ، وتكتب فيما أنزوي على هامش الحياة، أجمع ذنوبي فوق ظهري ، ماضياً نحو التلة ، غير نادم على شئ ، أتلقى ما ترسله إلي عيون الجمهور من إهانات غاضبة ، تشيع بها خطواتي الأخيرة نحو المصير ، وابتسم في بلاهة غامضة هاذيا :أريد أن اكتب..! أن أبذل دمي ثمناً لكتابة هي كتابة الذات.؟ أن أعبر سياج الغربة مرة أخرى ، ملوحاً بيدي لكل من يقف معي على ضفافها الرومانسية الغارقة فى فيضان المشاعر الحميمة.. أريد ..

# ٢٣

في هذا الصباح الذي أعرفـــه جيدًا .. يعـاودني ذات الوجـع القديـم .. التقط من بين حبات الصبـاح الرماديـة ، المطفـأة ، لحظـة متكـررة ، أشـم فيها رائحة جرح قديم انفتح ذات لحظة – مشابهة – منـذ سنوات خلـت لحظة وقحة ، أتعرف فيها على نفسي عارية عن أي قناع ، فأراني بالعين التي لا يراني بها أحد سواي ، عين الحقيقة:

كاتب ملعون بلعنة الكتابة ، كتابة الذات ، اتخذ من الكتابـة ، لا مـن الواقع ، مادة حياتـه ، وهكـذا أصبـح خيالـه القـاتم هـو المحـرك لوقـائع حياته ، وليس العكس ، إذ لم يعد يرى الناس والأشـياء كمـا هـم ، ولكـن كما يصورهم له خيال الكتابة ، وهكذا – أيضـاً – يـزداد مـن خلفـه طـابور الضحايـا، أولئك الذيـن دخلـوا حياتـه وخرجـوا ، دون أن يعرفـوا كيـف أدخلهم إليها ، ولا لماذا يطردهم منها!

ومازال علي أن أكتب.. لا أدري لماذا ..؟ تتسـاقط كلمـاتي سـجينة هـذا الشكل الذي اخترته مقبرة لها، تدعونى لكـى أحررهـا، وأعطـى مضمونـها " توتراً خياليًا " يناسبه عبر شكل جديد.. إنها ذات الازدواجية القائمة ما بين حرية المضمون وقيود الشكل..لكن..أليست هذه الازدواجية هي الوجـه الآخر لشكلة الحرية ، بمعناها الوجودي، حريـة مـا يعتمـل بداخلـي مـن مشاعر وأفكار لا تلبث إلا أن تسقط حبيسة الشكل الاجتماعي الذي يفرضـه وجود الآخر، فالآخر هو الرقيب والقـاضي والجـلاد ، وإذن..مـا هـي تلـك الحرية التي نتوهم إمكانية الفوز بها ، ونحن مرتبطون بتقاليد أدبية وفنيـة معينة نحـن مـن سـاهمنا فى صنعـها أو استمرارها.. وكـذا بمـا فيـها اللغـة ذاتها؟ ألا يعني ارتباطنا هذا نفياً بديهياً للحرية من جذورها .؟

ولا يزال الصباح يتمدد رمادياً .. يلامس حافة المساء المقبل على مهل.. فيختلطان، ترتبك الأسماء والمعاني التي منحناها الزمـن ، وتصبـح اللحظـة هي الكل ، لا ماض ولا مستقبل . لا شئ هنـا إلارقصـة القلـم فوق فـراغ الأوراق، ونحيب المغني في الخلفية يرثـي حبـاً ضائعـاً، وضـوءاً لاهبـاً فـوق

الطاولة، والكلمات متناثرة في كل اتجاه تحاصرني ، وكأنـها جثـث طافيـة تفتش عن ضفاف العدم.

لست أدري.. هل كانت لي يوماً نفس كاملة غير منشـطرة ،واحـدة غـير منقسمة.. صافية غير مشوشة ؟! وأين هي الآن مني..؟ أنا المنشـطر بـالظن ألف شظية متنافرة، المنقسم بالملامة أضداداً متخاصمة ، المشوش بالهواجس المقيمة، الموحشة.

هل تكفي الكتابة سبيلاً إلى الذات.؟ وحتى لو كانت تكفي.. فهل يكفي حنيني وحده سببا لكي يقرأن الآخر المسالم الذي قـد يتـورط في قـراءة هـذه السطور ، خاصة وأن صاحبها ليس من بين أولئك النجوم الذين يتماه معهم الجمهور فيتوحد مع ما يعانون من الآم..؟ ولكن.. مالي استرسـل في السـؤال الذي لن تكون الإجابة عليه إلا وسيلة جديدة مـن وسـائل الإحبـاط وتبديـد الطاقة وكبت الرغبة الحقيقية في التعبير عن الـذات ، والبـوح بـين نـاظري أناس قد يكونون على شـاكلتي ، يعـانون معانـاتي نفسـها.! فلأكتـب إذن وبلا تردد..مرة واحدة..بلا تردد..فهذا هو حلمي القديم الرائع.!

هـي الكتابـة مـرة أخـيرة ..فعـل التـأنيث الحـاضن .. سـيدة الأفعـال الخالقة .. أنثى العقل المغرور ، المسكون بالصور ..هي وليس سواها شئ .. حالة التطهر من كل مـا يحتجزنـي خلـف أسوار القـهر والحرمـان ..عيـد ميلادي المؤجل ، المراوغ ، المستعصي على الاكتمال .. هـي مـبرر وجـودي الوحيـد ، وصوتـه الـذي يمـلأ أذنـي ، ويمنـع عـني فحيـح أفـاعي المـوت الزاحفـة نحـوي بـلا إبطـاء منـذ اللحظـة الأولى .. هـى الكتابـة أنثـاي الرائعة .. ولا غيرها..أكتب ... ولكن .. يقع في الأذن صوت ، لعله حنـين الغربة يعاودنى ، أسمعُ :

" كيف أمضي من هذه المدينة.. وأعبر البحر من غير كآبة "!؟

إنها كلمـات جـبران وصـوت فـيروز .. ياللصبـاح الملـون بزرقـة الشـجن اللذيذ..!

وهل تحتاج إلى شئ آخر بعد لكي تصل تخوم الرومانتيكيـة، بحيـث لا يبقى إلا خطوة واحدة وتصبح خارج حدود المادة اللزجة، البـاردة.. وكـأنك طيف أثيري تسبح فى عالم الروح اللانهائى !؟

وبالمناسبة قرأت مرة لأحدهم أن الشعر قد أفسده.. أما أنا فقد أفسدني شاعران، الأول هو جبران خليل جبران ، الذي أمنت به مبكراً، فطبعني بهذه المثالية الكامنة خلف كآبتي التي ينكرها علي كل من يقرأن.. أما الثاني فهو بودلير الذي تنسمت معه عطر" أزهار الشر " الحلو حلاوة الخطيئة..

اذكر أن أول دفاتري الشعرية العمودية سميته " أزهار سوداء " تيمناً بالنفس البودليري المشع بالسواد اللامع في ذاته .. وإذن فقد قام جبران بتهذيب تطلعات الروح وتدريبها على التحليق فيما وراء الواقع اليومي الخانق، بينما رسم بودلير للجسد معالم طريق اللعنة .

وهكذا .. كما ترى ، وحين ينفك عقال العقل المربوط بخيوط النور ، وتسرح الروح في عتمة الحلم ، وتصحو ذاكرة الجسد المتوحد .. يسري الخلل بين زوايا الكيان الهش ، ويصبح الموت ، الذي هو حياة الروح ، قاب قوسين من القلب الموقوف عن الشعور بأمر القبيلة . وهل للغريب عزاء في مثل هذه الأحوال ، أحوال الجنون الحر ، سوى الكتابة .. كتابة الاختلال..؟

يـا للـرأس المسـكين..وقـد اجتمعـت إليـه مجـاري الكلمـات ـ الأصـوات لتجعل منه مستنقعاً مشوشـاً ، أو حفـرة بابليـة تعـج بـالضجيج والصخـب الفـارغ بكـل اللغـات . وبـين مقـاعد مقـهى "البسـتان" المتهالكـة تتنـاثر الكلمات ، تتقاذفها الرؤوس الزائفة تفتش بها عن موضع على سلم المجد، فإذ هي في فراغ سحيق . هذا زوج من شعراء العامية، تخيراً غصناً قصيـاً ، ينعق من فوقه أحدهما ، ذو وجه مجهول ، غبي القسـمات ، كـان نعيقـه حداثياً غـير مفـهوم . لاحـظ وجـودي فتقنـع بـالصمت لحظـة ، ثـم أعلـن لصاحبه همساً مدوياً : هل تعلم؟ إنهم يقولون : إن أعظم شعراء العامية هـم "أنا" و "أنت" وسيد حجاب والأبنودي .. وسكت !

يالأفعل التفضيل هذه لماذا يهرول خلفها الجميع غير مبال باتساع الأفـق لملايـين الأصـوات مـن دعـاء الكـروان ، وحتـى نعيـق صاحبنـا المجهول؟! .. أقول ليسوا سوى مهرجين بائسين ، انصرف عنهما جمهور السيرك الأدبي . ولكن مهلاً .. ألسنا جميعا مهرجين .؟ أجـل .. ولم لا .. إذا كانت مهمة الكاتب هي منح الآخرين البهجة أو إسعادهم فـإن هـذا لا يتطلب سوى أن تكون لديه مواهب "المهرج".! تلك حقيقـة أخالهـا تزعـج أصحاب القلم وتثير حفيظتهم المتعالية..

فالتهريج " ليس مهنة فحسب ولكنه أيضـاً فلسـفة " كمـا يصـرح بذلـك فيلسوف معاصر.. والمهم هنـا هـو نوعـه وهدفـه، فـهناك التـهريج الحسـي الرخيص الذي يتخذ من العمليات الفيزيولوجية الخارجية مـادة عملـه مـن أجـل إثـارة مشـاعر البهجـة السـطحية المؤقتـة لارتباطـها بـاللذة سـريعة العطب ، بينما هناك أيضاً التـهريج العميـق المُر الـذي ينفـذ عـبر مـا هـو مـادي، خـارجي، حسـي إلى الداخـل ، الروحـي ، ليثـير مشـاعر الفـرح والغبطة الإنسانية الأصيلة التي قد تبتسم لها أسارير الوجه، أو تدمـع بـها العين..وفوق هذه المساحة الساخنة ، مساحة السخرية العميقة المرة ، لاشك يلتقي الاثنان الممثل ، أو فنان المسرح ، والكـاتب في نـهار جديـد.. نـهار

العقل العائد من رحلة الوهم بين الأوراق المنشورة على حبل الخيال.. يتأمل كلُ منهما صنيعه مختالا لحظـة، ثـم يسـتفيق فـإذ الأوهـام وقـائع مثبتـة، والخيال قد صار حقيقة.!

إنها لعبة الإيهام المسرحية القديمة ، يلعبها الجميع، وأيضا يغرق فيـها الجميع بمن فيهم الكاتب نفسه صانع الوهم الجميل ، والـذي لا يلبـث أن يصـدق خيالـه فيعيـش هكـذا علـى هـوى الصدفـة والتجربــة، ولا يــدرك ما يحدث حين تختلط القصص ، ويجد نفسه في الواقع بطلاً لأكثر من قصة في ذات الوقت..فيضيع.. لولا هذا الحس العميق .. حس السخرية .

## ٢٥

هيلتون النيل .. صباح رطب ..

هذا المكان يلائمني .. يحتوي وحدتي البسيطة ، ورغبتي الغامضة في تناول فنجان القهوة الصباحي .. لعله يصلح أيضاً للكتابة ، رغم زحام الرواد من سكان الفندق ذي النجوم الخمس ، فمازال واحدًا من الأماكن القليلة ، التي احتفظت بشيء من عبق الماضي .. تتراءى صورتي فوق الأرضية المصقولة بعناية فائقة .. هذا هو أنا .. من بعثر خطاه فوق الدروب المتقاطعة ، وافترش ليال كثيرة بلا نوم يبيح دمه لشفاه الملكات الدموية.. هذا الذي أصبح اليوم بلا قلب .. يحمل رأسه بين يديه كثمرة رمان جريحة .. المنثور بين الأمكنة .. الشاعر عفونة الوجود .. هذا الذي هو أنا .. هل يعرف كيف يحبك حقًا .؟

أحبك .؟ وكيف للغريب أن يعرف لوعة العشق ، أو أي لوعة أخرى غير لوعة الغربة ..؟ كيف لي أن أحبك وبيني وبينك هذا المارد .. الاغتراب؟ هذه الصحراء الشاسعة،الكالحة،التي تمتد فيما بيني والأحلام التي أطلقتها في سمائي مبكراً.. هذا الذي يعطل حواسي الظاهرة كالكابوس، فيغدو الوجود بلا لون كالعدم ؟

هذا ـ في النهاية ـ ما جنته الرومانسية ، تلك الحيلة النفسية عظيمة الأهمية في حياة البشر، لكنها القاتلة أيضًا .. فالارتباط بها ، وتصديقها مع عدم القدرة على إدراك لا إمكانية تحققها ، معناه العيش مفصولاً عن الواقع، معزولاً عن حياة كل يوم . إنه المرض بعينه مرض الموت اليومي، تشق آلامه القلب ، تجرح العين ، وتعكر سماء العقل .. فتغدو الحياة ، كما هي الآن ، متوالية كابوسيه رهيبة تدفعني تحت عجلاتها الطاحنة من صباح إلى صباح بلا توقف .. فيما أمضى معها لا أدرى إلى أين ، أو من أين الخطى !؟

ولا يهدأ السؤال .. وكيف الهدوء وبداخلي هذا الذي لا يشبع ولا يرتوي ، من يعذبني بي ، الهارب في ، القابض علي .. هذا الذي هو أنا ، هل يعرف كيف يحبك حقاً .؟ فلم أكن أبدًا قادرًا على كتابة رواية عشق

أبثـها أوجـاع القلب المرهـق ، المزدحـم بـالصور والكلمـات والذكريـات المختلطة.. ولا تسأليني عن مكانك بين هذا كله .! وهل كنتِ إلا سطرًا في كتاب العشق المفتوح منـذ الصبا ينتظـر الحـب بمعنـاه الحقيقـي ، دون أن يمنح القلب - نفسه - فرصة التقاط أنفاسه بين القصص المتتابعة ، المفتوحة - كلها - بلا نهاية .. !

وهكذا كلما غاب عقلي في ظلمة امرأة جديـدة تراودنـي نفـس الرغبـة .. تـدق أبـواب كيـاني ، تطـالبني باسـتكمال وتجميـع بعـض الدراسـات أو الترجمات المؤجلة.. فلا شئ غيره.. لاشيء سوى العمل سلاحاً ضد مشـاعر اللا جدوى وفقـدان المعنـى والإدراك الرمـادي للوجـود.. ضـد كافـة أوجـاع القلب .

صباح مستعاد .. أحاول فيه الرجوع إليّ .. إلى الكتابـة ، فمنـذ شـهرين وأنا هنا بلا معنى ، لا أجد كلمة أتنفسها تعيـد لي الـروح .. يبـدو أن هـذه الحالة قد صارت عادة موسميـة تعـاودني بشـكل غـير منتظـم ، ولا متوقـع أيضـاً. ومن جرب لذة الكتابة يعرف جيداً حجم الفراغ الذي يحدثه فراقها، وهو فراغ قاتل كما يقال إذ قد يؤدي بالمرء فعلا إلى الأقـدام علـى الانتحـار ظناً منه أنه أضحي بلا فائدة وأنه لم يعد لديه شـئ يقدمـه أو يفعلـه. وقـد يكون هذا اليأس نفسه داعياً إلى أشكال أخرى من الانتحار مثـل السقوط في هوى الإدمان أياً كـان موضوعـه مرئيـاً أو ملموسـاً أو مسـموعاً .. إذ لا يفـل الحديد إلا الحديد .. فـهكذا أدمنت الغرق في ملوحة النساء . لكـن الكتابـة تظل هي الجدار الصلـب . وغرامـها يظـل هـو الأعمـق مـهما بـدت حـلاوة الهوى الآخر ، البديل ، الزائل !

وما هي إلا ليلة وضحاها .. فإذا المكان غير المكـان ..نقلـة جديـدة فـوق رقعـة اللعـب الممتـدة منـذ وعيـتُ معنـى الوجـود وفـق قـانون الأجـداد ، أجدادي ، أولئك الذين عاشوا بين الأمكنـة بـلا مكـان .. مطـاردين دومـاً بذنب من لا ذنب لهم .! في هذه الليلة بالذات .. رأيت فيما يري الرائي - وليس النائم قطعاً - ما قد استقر معناه في عمق أعماق الروح منذ رأيته للمرة الأولى :

" ليلة باردة ، رطبة ، وأنا وحدي خارجاً عني ، أسير عارياً فـوق شـاطئ

مهجور . أخوض زرقة عميقة .. أنا الكل المركب ، المذكر والمؤنث معاً ، في وحدة هيروغليفية لا يدرك حل شفرتها إلا الغرباء الحقيقيون .! هناك .. رأيت ظلي .. رأيته ، هو أو هي ، لست أدري . كان يمضي مسرعاً فتتطاير عباءته الدموية ، كجناحي خفاش عظيم ، وأنا من خلفه ، خلف ظلي ، كالمسحور مسلوب القوى ، لا أمتلك من الزمن إلا قيد لحظة ، ولا من المكان سوى قيد خطوة .. خطوة واحدة .. وما يزال البحر من تحتي يدفع بالموتى موجة إثر موجة ، وفى
الخلف بيوت المدينة هامدةً بلا حياة..

وفجأة أصحو لكي أجدن هناك .. في ميدان واسع – كميدان التحرير – وفقد فاتني موعد الصحو .. واقفًا ، عاريًا ، وحدي ، بيدي شعلة نار .. أضرمها في جسدي .. وأبتسم .. بينما يعلو تصفيق ، وصراخ الملايين من حولى بالهتاف العظيم . "

– انتهى –



# امـرأة فى الظـل

## رواية قصيرة جـدا

## تقـــديم

أنا زهرة الحقل ، وزنبقة الوادي ..
أنا أم الحب الجميل والخوف والمعرفة
والأمل القدسي ..
أنا وسيطة العناصر .. أجعل واحدها
ينسجم مع الآخر ..
ما هو حار أجعله باردًا وبالعكس ..
وما هو جاف أجعله رطبًا وبالعكس ..
وما هو صلب ألينه ..
أنا المبدأ في الطقس ..
والكلمة في النبي ..
والمشورة في الحكيم ..
سأقتل وأحيي ..
وليس ثمة من يمكنه النجاة من يدي .!

*[ من نص صوفي قروسطي ]*

## إهــــداء

امــرأة الظـــل ..
الواقفة - كَانت - خلف جدار القلب ،
تنتظر اللا شيء ،
ولا ينتظرها شئ .
هي الآن شمس تحترق
- من بعيد -
تدور حول الكيان الممزق ،
تلفه نورًا ، أو نيرانًا ،
تشعل أحلام النوم الكئيب ،
ظلاً أبديًا فوق جدار العين .

# ١

أما بعد ..

.. فهاأنذا وبمجرد مطالعتي الرمز ١٤٣ على شاشة جهاز الاستقبال الرقمي ، ومعرفتي بما يعنيه: " أحبك " ، و بعد سبعة ضربات حائرة فوق أرقام الهاتف .. هاأنذا أسقط مرة أخرى في ذات الدائرة القديمة التي حسبت يوما أنني قد خرجت منها وللأبد .. دائرة الظل المرعب الذي اعتاد فيما قبل تدمير خلايا عقلي وارتشاف عصارة أعصابي في نشوة مسعورة ..!

هاأنذا مرة أخرى معك .. أسبوع بطوله في جحيم الفردوس المفقود .. بخور وشموع .. خمر وموسيقى ورقص ومعارك جنسية ظافرة حتى الصباح .. لا أنام إلا كالأطفال على هديلك المبحوح ترويــنِ لي خبايا عالمك السفلي ، الذي ألقت بك إليه يد القدر الظالم بعد أن طُردتِ من حمى الدفء والأمان ، عالم النصف المعتم من الحياة في النصف الأسفل من هذه المدينة .. حيث تجارة الخمور والمخدرات والدعارة .. تجار وقوادون وصعاليك .. نساء ، ورجال ، وجنس ثالث من بشر لم أتوقع يومًا أن أعرفهم ..!

ولكن أليست تلك هي النهاية الطبيعية التي كان يجب أن تنتهي إليها هوايتك في لعب دور العاهرة ..؟ أن تصبحي بائعة ماهرة للمتعة الحرام أيا كانت خمرًا ، أم مخدرًا ، أو أجسادًا .. لا يهم فالمهم الآن هو العمل وفق نظام الشبكة التي تديرها قوادة جعلت منها أما لك ( ولا بأس فقد صنعت لنفسك هوية وتاريخًا جديدًا ) ..! فلم يعد الأمر هو الإثارة والمتعة الصبيانية القديمة ، بل هو الـ BUSINESS ، ومن ثم الولاء والطاعة العمياء.. وإلا فالحساب عسير.

مرة أخرى تشتعل النار برأسي ، وترتبك ضربات قلبي في انتظارك ، وتختل كافة حساباتي التي تصورت أنها ستضع نموذجًا نهائيًا للطريقة التي ستمضي عليها البقية الباقية من حياتي .. مرة أخرى وبعد أن

تخيلت أنه بإمكاني التخلص منك برواية قصيرة أكتبها . وأضع لها عنوانًا موحيًا هو صفتك المحببة إلى قلبي .. امرأة الظل .!

مرة أخرى أجلس إلى طابعتي لكي أكتب ألمي وحيرتي من جديد . فأنا أدرك جيداً أنني لن أستطيع البوح بسرك مرة أخرى إلى أي كائن مهما كانت علاقتي به ، تماما مثلما لم تستطيعي أنت السير معي بين زحام الناس ، فرحت تغطين وجهك بالجريدة المطوية ، وتمدين خطوك ، كالهاربة من ملاحقة غير منظورة ، وأنا من خلفك كطفل غاضب لا يدري ما يحدث من حوله ، ولا يستطيع أن يصدق أنك قد صرت هذه المرأة المشبوهة ، أو لعله لا يصدق أن قلبه قد تعلق بهكذا امرأة .!

ولم يكد ينتهي الأسبوع الحلم في جحيم الفردوس المستعاد ، حتى عدنا مرة أخرى ، لعلها المرة الألف ، ندور حول ذات النقطة .. فأنت قد عدت إلى حيث جئت ، وبقيت أنا وحيدًا ، تأكل كلانا نيران الهواجس الشهوانية الدامية ، وعندما نلتقي يستنزل كلانا اللعنات من كل صوب فوق رأس الآخر ، ونفترق على ألا نعود ثانية .. ونعود .. حتى جاءت اللحظة المناسبة التي استطعت فيها الخروج من هنا ، والعودة إلى الوطن .

قبل السفر جمعت لك كل ما يتعلق بك لدي .. صوتك وصورتك .. وهذه الرواية الملعونة – كما سميتها – .. ولم يكن مفاجأة لي رد الفعل العنيف الذي صدر منك تجاهي ، فبكل وقاحتك المعتادة صرخت في وجهي : " ملعونة هذه الرواية .. إنني أكرهها ، بل لا أتصور شيئًا في الدنيا في بشاعتها .. " ..! ولم يكن عليّ إلا أن أولي لك ظهرك وأمضي .. على وجهي قناع الحسرة والندم ، بينما كان قلبي لا يكاد يسع قفزات الفرحة الطاغية .. فرحة الانتقام ، أو التشفي منك .. من المرأة التي تولت فيما سبق عرش إلهامي فأذاقتني ألوان العذاب ، الذي لم أحلم به يوماً .!

تذكرت ليلتها ذلك الجمال الرومانسي الفاتن لأيام الكتابة الأولى ، وكيف كانت الكتابة آنذاك وردةً ، أو نيشانًا أعلقه على صدري ، مختالاً بين الأصدقاء والمعارف ، وتلك الفتنة الساحرة ، التي كانت تمس بريشتها الفتاة أي فتاة حين أسميها ملهمتي التي أكتب لها ، أو عنها .! ولكني تذكرت أيضا اللعنة التي يا طالما قرأت عنها ، والتي كانت

تصيب الشعراء القدامى عندما يشبب أحدهم بواحدة من بنات القبيلة ..!

وهكذا وعلى الرغم من تهديدك الصريح لي بالويل والثبور لو فكرت بنشر هذه الرواية ، فإنني أكتبها مرة أخرى مزيدًا ، ولن أعود حتى أنشرها مهما كان الثمن ..! وسواء كنت أريد أن أنساك ، أو العكس .. فهي صورة لزمن عشته مختاراً ، أو مرغماً ليس يهم .. فالزمن هو ما يمنح وجودنا إنسانيته .. وإلا فما معنى تلك النشوة التي تغمرنا حين نتذكر أيامنا الماضية ، وما هو سر الفتنة التي ترقد فيها طفولتنا .؟ فبالرغم من كل ما قد يكون مر بنا من آلام ومعاناة ، حسبنا يومًا أنها لن تنتهي ، إلا أن الماضي ماضينا بالذات يظل بالنسبة لنا حلماً رومانسياً ، حتى ولو كان هو ذلك الجحيم الذي تمنينا يوما أن ننساه .!

ولعلك لست وحدك من يلومني على كتابتها ، أو نشرها ..! فعلى الرغم من أنها رواية عصرية جدا " على الموضة " من نوع أدب الجسد الرائج في هذا العصر الفضائحي ، الذي ننام ونصحو على عوائه الجنسي الجائع في كل مكان ، والذي لم يسلم من شرره حتى رئيس أكبر دولة في العالم .! إلا أن أي ناقد محترم سيجد نفسه ، بعد أن يكون قد استمتع بفك طلاسمها ورموزها ، مكشرًا أنيابه بوجهي ، ثم يلوي عنقه مشيحاً عني ، وهو يدمدم : وما هذا الذي تكتبون .؟ هل فرغت الموضوعات من حولكم .؟ أم أنكم لا تستطيعون مغادرة ذواتكم المريضة بالهواجس الدنيئة .. الشريرة .؟

تسألينني : ماذا ستقول لأمك وابنتك وأهلك حين يقرءون ما كتبت ..؟ ألا تخجل .؟ ولا يعجبك قولي إن هذه ليست سوى رواية ، أي أدب .. خيال روائي ..! فأنت وحدك تعلمين أنها ليست كذلك ، ولم لا ألست أنت البطلة التي رسمت ملامحها كلماتي وريشتي .!؟ ، ولكنك تعلمين أيضاً أن هذا الخيال القصصي قد لا يكون مخجلا بقدر الواقع المشين.. ثم أنني لم يكن لي خيار .. تماماً مثلما وجدت نفسي منذ اليوم الأول أحبك .. ولم أسأل نفسي لماذا ..؟ فكل ما في الأمر أنني لم أعد بعدها أستطيع العودة إلى فراشي بدونك .! أليس هذا ما يسمونه الهوى ، أو الغرام ، أو الحب المجنون ، وليد الصدفة ، ضربة القدر .. !؟ هذا الذي

تقف بوجهه كل النظم والعادات والتقاليد والأخـلاق .. أو كما يقـول عنـه فورييه : " إن العالَم العالِم مشّرب كلية بمذهب يُدعى الأخلاق ، التي هي عدو قاتل للانجذاب المغرم " .. ولكـن أي شـيء في أن يُغـرم المـرء بظلـه ، بعيبه القاسي الجارح . حتى ولو كان هذا الظل قد وجد تجسـيده الواقعـي على صورة امرأة .!؟ وحتى ولو كانت هذه المرأة محض عاهرة صغيرة ..!؟

## ٢

**من أوراق زمن ماض :**

سان بطرس برج ..صباح ١١/١٠/ ١٩٨٩..

و ..

" لاشيء ..

لاشيء الآن ..

لاشيء سوى ثلاثة وثلاثين ."

بايرون

ثلاثة وثلاثين .. ياله من رقم هزيل في حساب الزمن ، لكنه كثير جدًا في حساب النفس الواعية . وهل هناك أكثر من أن تظل ثلاثة وثلاثين عامًا سجين ذات الشخص ، بكل أخطائه وآلامه وأمراضه وأمانيه المحبطة .؟

حياة بشعة .. تلك الحياة الواعية .. أليس كذلك .؟

" حياة ليس فيها إلا القليل من اللحظات الجميلة ..

لا سعادة ..

لا هدوء .. "

هكذا كانت الاسطوانة تصرخ من خلفي بالصوت المشروخ لواحد من المغنين الروس الغاضبين ، وبموسيقاه المسخية الصاخبة ، التي انطلقت في سماء روسيا الجديدة بعد زوال السنوات السبعين من الحكم الاشتراكي ، وكأنها لم تكن ولا يوماً واحداً .! ، ولا شئ يمنع عني شعوري المرعب بالغربة ، ولا حتى روائع الفن العظيمة التي كنا نتبتل في رحابها منذ وطئت أقدامنا مدينة الشياطين هذه ، فهاأنذا هارب من جحيم إلى جحيم.. وهاأنذا قد بلغت عتبة الكهولة .. ثلاثة وثلاثين .. ثلاثة وثلاثين ولا شئ حقيقي .. وحيد ، وحيد .. مثل ذئب جريح يكسوه الجليد حينًا ، وتغطيه الصحارى أحياناً أخرى . ولا مفر .. فلابد من الكتابة مهما كان الثمن .

كان هذا كما هو مكتوب فوق الأوراق الباقية بين ركام العمر الذي أحمله على ظهري من غربة إلى أخرى قبل ذلك اليوم الألف بعام

كامل ، أو يزيد . وكنت قد أتممت استعدادي الخاص للاحتفال بعيد ميلادي الأول . بعد وصولي فجأة إلى عتبة التحول ، التي يخطو فوقها الرجال ، ولابد . بمجرد وصولهم سن الثلاثة والثلاثين ! فكما قال لي أصدقائي الروس حينئذ : إن هذه العتبة هي التي تحول عندها المسيح من الصورة الأرضية الفانية إلى السماوات ، ومن يومها أصبحت بمثابة النقطة الفاصلة في حياة الرجال ، فما بعدها لا يكون أبدا كالسابق .

لم يكن استعدادي الخاص آنذاك سوى رداء السواد الذي أرتديه منذ البارحة ، وكمية كافية من المأكل والمشروب الناري والسجائر ، ولوحة زيتية لم تكتمل ، علقتها خلف الباب المغلق بوجه الدخلاء من زملاء السكن الجماعي . وكمية لا بأس بها من الدموع اللازمة لتكريس مثل هذه المناسبات الاحتفالية الخاصة .

كنت قد تعودت منذ أعوام على ممارسة طقس مشابه ، كلما حل اليوم الحادي عشر من شهر أكتوبر كل عام ، تاريخ ميلادي المشكوك في دقته ، ولم يكن من جديد هنا سوى تلك اللوحة المعلقة خلف الباب المغلق ، فلم يكن لي من قبل علاقة بفن الرسم ، ومن ثم فقد حسبت يومها أن هذا هو التحول الجديد في حياتي .. أنني سوف أصبح ، بضربة واحدة ، رسامًا .

لكن هذا لم يحدث هكذا ، وبتلك الصورة المفاجئة ، لولا تلك الساحرة السلافية التي هبطت بين يدي لتمنحني لقبًا ، وتكشف عني غطاء موهبة ، ولم أدرك عندئذ أنه ليس إلا نذر مشئوم للعنة مشئومة قادمة .

أما اللقب فهو " مكبث " بطل التراجيدية الشكسبيرية المسكون بالنبوءة القاتلة ، آدم عصر النهضة الذي راح ضحية نفس الغواية الشيطانية ، وخرج من جنة العيش الهنيء ، حيث عاش واحدًا من نبلاء القطيع المترفين ، ليخطر مراوحًا في دائرة الظل قبل السقوط الدموي المريع. وقد كان هو أول من رسمت صورته ، يوم عرفت معنى الفرشاة والألوان .. معنى الرسم .. تخطيط مسارات الروح المحلقة فيما هو أبعد من الكلمات ، تلوين الانطباعات المتحولة ، العصية على سلطة العقل النظري، قبل أن تكون هي صورة القرين ، أو الظل ، ذي القرنين ..الذي سيأتي على ما تبقى من العمر . !

كان ذلك في الصيف الماضي ، قبل العام الثالث والثلاثين من عمري ، وكان الشتاء قد سافر ، وأصبح الجليد جثة داستها أقدام الربيع في انتظار الصيف الشمالي ، الأبيض ، حيث لا زمان هنا إلا النهار وحده بلا ليل .
وكنت قد قررت البقاء في تلك المدينة التي رضيت بها مكاناً للنفي الاختياري ، وبالتحديد في السكن الجماعي القائم على بعد خطوات من النهير الأسود الصغير ، الذي سقط بجواره صريعاً الشاعر بوشكين ، في الثالثة والثلاثين أيضاً مثلى ومثل بايرون ، فى مبارزة حمقاء ، بسبب وشاية حقيرة عن امرأة ، شاء القدر أن تكون هي زوجته ، لم يحفظ التاريخ من سيرتها سوى هذا الارتباط المشئوم بنهاية شاعر عظيم .!
هكذا بقيت وحدي متنعماً بحرية العيش في السكن الجماعي ، وقد خلا من صخب الطلاب وعبثهم اليومي المجنون ، قبل أن يعود سيرته المعتادة حظيرةً تأوي أشباهي من الأجانب المتنطعين في نعيم الأممية المجاني .
وجاءت هي .. ناعمة ..وادعة .. كأي قطة سلافية متحولة ، كالأطفال المبدلين في الحكايات الخرافية القديمة ، .. جاءت .. بين جماعة من فتيات مدينتها صوفياً في رحلة صيف . ولم تكن الدنيا كما هي الآن بالطبع ، فقد كانت العادة أن ترسل بلدان المعسكر الاشتراكي أبنائها للتبرك بأنفاس أمنا الأرض موسكو كما كان يسميها أحد الرفاق ، والمهم أنه كان من الواجب زيارة مدينة لينين التي عادت إلى اسمها القديم سان بطرس برج بعد ذلك بقليل .. مدينة منفاي الاختياري قبل الأخير ، السيدة الأولى بين مدن روسيا ، حتى بعد أن نزعوا عنها ألقابها أعطوها لقرية كبيرة ، قبيحة الوجه ، ميتة الروح ، لتصبح هي العاصمة .. كما حدث مع أم كلثوم فى العهد الساداتى .!
هكذا .. فعندما قررت تلك الساحرة السلافية الصغيرة مايا أن تمتطي سحابتها الخرساء تخترق غيوم اللغة ، وتستقر في هدوء عميق فوق فراشي البارد .. لم تكن خائفة ، فقد كان يحرسها الهلال الشهري الغيور ويذود عن حديقتها الغارقة في دمها الأزرق . وعندما جاءت كان معها عدتها كاملة .. علبة ألوان مائية ، وحفنة من ورق الرسم ، وخريطة لمواقع النجوم التائهة .. من أجل أن تعلمني درسها الأول الصمت.. سكون

الجسد المتآكل شهوة في حضرة الـروح الناعمـة   قبـل أن تـأخذ بيـدي إلى عـالم ما وراء الأشياء . الذي امتنعت طويلاً عن مجـرد التفكـير فيـه بحكـم التربية الأيديولوجية الصارمـة . ولم تمـض شـهور قليلـة حتـى انتقلـت إلى سكن أخر ، على الطرف القصي من جزيـرة فاسيلي الواقعـة علـى الـبرزخ الواصل ما بين الخليج الفنلندي ونهر نيفا.. مستعداً لطقـس العبـور المنتظـر بما تبقـى لي مـن إرثـها الغـامض ..عـدة لوحـات ، أدوات رسـم ، معرفـة طازجة بعالم النجوم والأبراج ..وخبرة غير عادية بالفن الـراسبوتيني .. فن الغواية الشيطاني

في هذا اليوم ، الحادي عشر من أكتوبر ١٩٨٩، شربت مـن المـاء النـاري الروسي ما يكفي للوصول إلى حد الثمالة القريب ، وجلست أرسم بلا انقطاع عاماً كاملاً فوق كل ما تقع عليه يداي مـن أوراق ، أو خشـب ، أو أجسـاد النساء.. حتى جاء ذلك اليوم الذي سمعت فيه صوت القدر بقلـبي.. صبـاح اليوم الألف من أيام الغربة قبل الأخيرة .

# ٣

في ذلك الصباح بالذات.. رأيت ، فيما يري الغريب المقطوع عن حياة القطيع الآمنة ، المنفي- آنذاك اختيارًا إلى النصف الأعلى البارد من العالم ، المشتاق إلى آفاق جديدة ، والذي يود لو ينفذ من بين الأعماق الرطبة إلى ما وراء الكون وشهوة الحياة .. رأيتني .. أنا وحدي .. تدور بي دوائر عاتية مثل دوامات جائعة ، من غرفة إلى أخرى ، في بيت من بيوت التيه .. تصفعني وتتلقفني الأبواب والجدران التي غطي السواد صفرتها الكالحة .. أرغي وأزبد كالمصروع ، يطاردني ظل ما .. يحوم حولي .. يمسك بي .. يتلبسني .. أعانيه مخاضًا .. اتقيؤه .. وإذ بي أمامه ، لا بل أمامها .. لست أدري.! الحقيقة أنني لازلت لا أستطيع تحديد صيغة الضمير الغائب ، الحاضر خلف هواجسي المستمرة ، ولعلني قد أحتاج إلى صيغة المحايد التي لا تعرفها ثنائيتنا اللغوية ، وإذن سأضطر إلى استعمال صيغة ألـ (هو) في الحديث عن هذا الواقف عند الحدود الفاصلة ما بين النوعين ، هذا الظل ، الذي رأيته يفتض غشاء سلامي ووحدتي ، الغشاء الذي حافظت عليه طويلاً منذ أهدتني إياه أمي يوم ولادتي ..

[ ولكن كيف بي أن أصفه هذا الذي هو وهي معاً في آن ، كيان خنثي يتمدد معلقاً على جدار الذاكرة مضرجًا بدماء الماضي ، فلا أقوى على كتابته بالتمام كما رأيته : وجه أو قناع يعيد إلى مرآتي المُغبشة برماد الليل صورة أمي الصبوح ، وجهها المشتعل بحمرة طبيعية دائمة ، يزيد توهجها ألق دمعتها القريبة دوماً ، لكنها تختفي الآن خلف سمرة كابية ، يداري خلفها لمعان العينين اللتين صارتا هنا ملوثتان ببكاء مخلوط بضحك قاتم خبيث .! ]

لا.. لم يكن هذا الوجه ، أو قناع الظل ، يشي بأي قرابة إلى وجه أمي ، وأنى له أن يكون وهو كما كان ، حين تمثلته للمرة الأولى ، وجهًا يتوسط جمجمة ذئبية ، وتحيطه فروه بنية كثة يبرز منها قرنان صغيران

يحسبهما الرائي لأول وهلة أذنين .! ولكن كيف - حدث وأن جمعت بينهما أو بينكما .؟ بل وكيف توهمت بعد ذلك أن ذلك القوام الضامر ، المهزول ، قد يمُت مثلا بأي صلة إلى صورة أختي الوحيدة التي احتفظت بها ذاكرتي منذ تلك الأيام التي كانت فيها وكنت على أعتاب النضوج .؟ فما هذا الذي رأيت سوى ظل مرعب ، ظلي ، الذي حسبته لن يفارقني إلا مقضياً علي .

ولم يكن لهذا الكابوس أن ينقضي حتى رأيت نفسي .. وحدي.. أسير في جنازتي الصامتة ، والظل أمامي يرقص ، في نشوة فاجرة ، وكأنه واحد من تلك الأمساخ ، أتباع الإله بس المصري القديم ، الذين كانوا يسيرون أمام الجنازات في شوارع القاهرة حتى وقت قريب . هكذا اجتمعت النبوءة الكابوس ، الرؤيا واللعنة معاً ، ليستقر الصدى في قلبي حتى اليوم مشيعا في كياني رعباً لانهائيا أحاول التخلص منه بكل وسيلة ، ولو بالكتابة عنك .. أيتها المرأة الكابوس ، أو اللعنة.. امرأة الظل .!

# ٤

الآن ، وفي هذا الصباح المبكر ، الذي حسبته لن يـأتي أبـداً ، وبعـد أن كشف لقاءنـا الصـاخب ، والفـارغ أيضـاً ، عـن استحالة عودتنـا إلى ذات النقطة التي كنا نتصور عندها أن الفراق بيننا هـو المسـتحيل ، أستطيع أن أتخلص قليلاً من مشاعر الغضب المحمومة تجاهك ، لأراك في الصورة التي كنت أتجاهلها طويلًا.. صورة الظل .. قريني القبيح .. ظلي العاهر ذاتـه ، الذي يقـف الآن في مواجـهتي .. يتحدانـي .. يبصـق بوجـهـي .. ينعتـني بأخس الصفات ، وأقذرها زراية بي .. أنا الذي لم يسـتطع يومـاً مواجهـة نفسه ، والاعتراف لها بما فيه من عهر كامن .!

الآن أتذكر .. ذات صباح كتبتك قصيـدة ، وخلعـت عليـك ذات اللقب الفاتن " امرأة الظل " ، دون وعي بما وراء هذه الصورة الشعرية من حقيقـة تخصني أنا أكثر مما تخصك .. فنحن لا نكتب عندما نكتب ، أو نرسـم ، سوى أنفسنا .. وما أنت سوى ظلي .. أو بمعني أدق نصفي المعتـم .. " أنيماي " ، أو المرأة بداخلي .. زهرة الحقل ، وسيطة العنـاصر .. ومـن هنـا تـراءى لي الحـل النـاجع للتخلـص مـن ورطـتي معـك ، وورطـة عبـادة " الأنيما " ، التي زادت من حجم تخيلاتي الشبقية المفزعة ، وبالتالي مـن تعلقي المشين ، والمتزايد بك كواحدة من أشـهى تشـخيصاتها .. أن أنشـئ هذه الرواية القصيرة ، لعلي أنجح مـن خـلال كتابتـها أن أسـتعيد توازنـي الداخلي الذاتي .. أن أعود بها إلى مكانها الطبيعي في الداخل .!

أعرف أنك قد تتوقفـين طويـلا عنـد هـذه الكلمـة : الأنيمـا .. ومـاذا تعني..؟ ، ولعلك ستكررين لعنتك الدائمة تصبينها فوق رأسي ، هذا الـذي تودين لو تقطعينه لكي تستريحي مما يمتلئ بـه مـن أفكـار وكلمـات ثقيلـة تفسد بهجة المتعة الحسية ، ولذا عليـك أن تعـرفي فقـط أنـها هـي الصـورة المجسـدة لعلاقـة الرجـل بعالمـه البـاطني ، بـاللاوعي ، فـهي التشـخيص الطبيعي لجميع الميول الأنثوية النفسية في قلـب الرجـل .! ، قدرتـه علـى الحب ، ولعه بكل ما وراء الواقـع والطبيعـة .. وبالجملـة ضعفـه .. أجـل وماذا يكون تعلقي بك سواه .. ضعفي الخاص .!

الآن .. واليوم .. ومازالت الدنيا هي الدنيا ، وشعوري بالوحدة مـازال، ولم يتغير إلا الزمن . فالشتاء قد سافر منذ زمـن ، والسماء حارقـة حريـقٍ الصيف المعتاد . أما أنت فقد عدت بنفسك إلى قارعة الطريق تدقـين أبوابـاً أخرى.. وتسكنين جسدا آخـر تنـامين إليـه ذاهلـةً .. وتصرخـين في أذنيـه نفس الجملة .." أنا عاهرتك .. عاهرتك .. قلها أرجـوك ..! " .. تريديـن لو يسمعها العالم كله .. ويصدر جسدك المُبتلي بالمرض الأسـود اللعـين ذات الأنين ، فلا تهدئين حتى تمتصين عصارته .! ولعلك تصادفين شاعرًا مختلاً آخراً يسميك ذات اللقب ، الذي أحببتِ " عاهرتي الصغيرة " .!

# ٥

والآن .. هل تذكرين أنت ..!! كيف كانت الدنيا.. آنذاك تلتف حول عنقي كأنها حبل مسنون، مجدول من شتي صفوف الهم والتعب..؟ وكيف كان شعوري بالوحدة متعاظماً إلى الدرجة التي يسحق عندها طعم الأشياء على عتبة الحواس، فيحيلها جميعاً إلى مرارة لاذعة ، فيما أبقى أنا..لا أحد..لا شبع ولا جوع ..لا ظمأ ولا ارتواء .!؟ وكيف كانت السماء حُبلى آنذاك بالمطر الأول ، فقد كنا على أبواب الشتاء عندما سمعت صوت دقاتك هامسة يرن صداها بجنبات الكيان المهجور، وعندما طاوعت وهم الأذنين ، فتحت الباب ..!؟ ولم يكن هناك سواك ..

كُنت في عباءة الخجل المستعارة ، التي ترتديها العاهرات في المرة الأولى ، وكأنها ثوب العرس.! لكن لم تكوني أبداً ، على الأقل بالنسبة لي ، ابنة ليلٍ حسب الوصف التقليدي المعتاد ، بل على العكس تماماً .. كنت دائماً ابنة الصباح .. عاشقة نهارية .. وهل يكون الظل إلا في النهار ، في وضح النهار .!؟

فهل لي أن أصدق تلك البداية وما تلاها من أحداث .؟ وهل كنت أصدق يوما أنني سوف أتعلق هكذا بواحدة ما مثلك..واحدة من هذا الصنف..!؟ وأنا من كان يتباهى بعجزه عن الوقوع في أوحال العاهرات منذ أيام الصبا الأولى ، عندما كان أقراني يتناوبون طقس العبور من الطفولة إلى المراهقة بين أفخاذهن ، وحتى أيام الغربة قبل الأخيرة في بلاد الروس ، حين كان كل شئ مجانياً ، مشاعاً .!

الآن..عند تلك النقطة الواقعة بين منتصف الزمن والنهاية ..حيث يحق لي أن أتوقف..أن أطرح جانباً هم الأسئلة، وأجرب أن أجيب ، ولو مرة واحدة ، بلا تردد ، دون أن أخشى الخطأ..أن أستمع نصيحة الراوي الأفريقي العجوز: إني أعرف أن أيامي قد قاربت النهاية، لذا سأحكي بلا خوف..!

# ٦

صباح متكرر .. صحوت إليه هارباً ، يطاردني ذلك الكابوس القصير ، القديم : " نسوة سافرات ، مشقوقات الجيوب ، فوق رؤوسهن تتدلى كومة متشابكة من الأفاعي الفحاحة ، وكأنهن بعض من بقايا كاهنات اليونان القدامى ، ربات الانتقام ، تتدلى على أكتافهن أجزاء مُدماة ، ممزقة لأطفال قساة الملامح ، يتخاطفن فيما بينهن نتفاً من لحمي الجريح ، ثم يغادرن منطقة أحلامي بعد أن يملأن ظلمتها بضحك مرعب ذي صدى لا يطاق ، يظل يحطم مسامعي لوقت طويل ما بعد الصحو.."

هكذا وعلى الرغم من بشاعة الكابوس ، لازلت أدور حول الفراش الرطب ، كذئب جائع .. أستمع بين أرجاء الكيان الملتهب رغبةً صوت المرأة التي شجت رأسها على حافة فراش الزوجية الأخير ، وهي تصرخ شهوتها ، المصطنعة ، بأكثر من لغة ، ثم تنهض مثل ذئبه عارية تدق جدران الغرفة الخانقة بكفها الدامي ، وتوقع بلون الشفاه وثيقة عشقها الهستيري القصير جدًا : I LOVE YOU

آه .. أيها الجحيم .. لست سوى امرأة .! .. وإلا فما عساها تكون الأنثى أي أنثى سوى النصف المعتم من الكيان البشري المزدوج .. حقل الألغام الاجتماعي الممتد منذ الأزل .. عنف .. عشق .. مراودة .. تحرش .. غواية .. اغتصاب .. فضيحة .. زواج .. طلاق .. ولا ينتهي الشقاء كما صرخ المسكين فان جوخ قبل النهاية .! ويالها من كلمة .. هذه الـ .. أنثى ، حين تثير عواصف الاحتياج إليها ، بمجرد كتابتها على الورق .. أليست هي الكلمة الجامعة التي تختزن بداخلها الثأر الأمومي القديم..عقد النقص الإنساني .. كلمة مدورة .. هشة.. سطح ناعم بلا قرار .. هي الرديف المناسب للأرض .. الريح .. والروح أيضاً .! المفعول به الذي يستفز بأسطورة الضعف النسوي الخبيثة أفعال العشق والعنف ، وكل ما من شأنه القضاء على عظمة الرجال .!

فالأنثى التي هي موضع الشهوة للحياة رحماً وللموت قبرًا ، لا

يمكن أن تكـون . في حال التعلق بها . سوى حجر عثرة في سبيل العظمـة الروحية . فهي تستوقف النظـر ، لتصبـح بعدهـا وثنـاً تعلـق بـه الحـواس الظاهرة.. ومن ثم فإن الطريق يصبـح مفتوحًـا إلى صحـراء الرغبـة ، حيـث الضعف ، ورعشة الكيـان الظـامئ ، وجـوع الخيـال المتقـد بنـيران الإثـارة الآثمة ، وفضاء التحقق المحدود بحدود الطاقة ..

# ٧

في ذلك الصباح المرتبـك .. صحـوت مـن وهـده المـوت اليومـي العـابر ، متسربلاً ببعض مـن خيـوط الكـابوس المتجـدد ، وقـد علقت بـين أجفـاني المصمغة بعسل النوم .. عاينت موضعي الجديـد أنـا..هنــا..الآن .! لا بأس .! فليس أمامي سوى قبول تلك الحقيقة الوجودية السخيفة : أنا هـو أنا مهما تغيرت الأمكنة .

قبل أيام كنت مواطناً كامل الأهلية في مكـان آخـر ، يقـال لـه الوطـن ، يطالعني كل صباح وجه أمي الحقيقي ، ويمـزق مسامعي ضجيج شارعنا البذيء . أنا الآن هنـا في هـذا الموضـع الغريـب ، أجنبيًـا مقيمًـا ، في هـذه النقطة النائية من صحراء العرب الآسيوية ، أسكن هـذا البيـت الكئيـب ، القريب إلى التيه بأبوابه الكثيرة التي تعترض وجـهي كلمـا تحركـت إلى أو من الداخل أو الخارج .! أيكون لتلك الكوابيس صلة بما يغمرنــي مـن قلـق خاص .؟ أم أنها الآلام التقليدية للغربة . التي رجعت إلى الاكتـواء بنارهـا من جديد في بلاد لم أسعى أبدا لدخولها ، ولكني وجدتني مسـاقًا إليـها ، وكأنني حمل ضال يساق إلى المصير الأخير .؟

ومازلت أثرثـر كـالمحموم : أنـا الآن هنـا .. وحـدي .. لا صـوت.. ولا ذكري ..لا شيء سوى صحراء النفي الشاسعة ، من بعـد سنوات الجليـد والضباب الخمس السابقة . لا شيء سـوى هـذا القيـظ الـذي يلفـح شغاف القلب الممزق ارتحالاً بين المدن .

قلت أكتب .. فياليتني.! ولو مجرد خط مبعثر فوق الورق يفك عن الرأس عصابة الهـم ، قبيـل الـنزول إلى معسـكر العمـل اليومـي . أكتـب.. مغلولة يدي .. لكن الكلمات تجيء ولو بعد حين كالقصاص أو الخـلاص ليس يهم .! لا أدري من أين.؟ وكأنه قد نبتت بين جنبي يد ثالثة بلون قرمزي ، وملمس خشن ، تصب على الورقة البكر شـيئًا كـالقصيد .. لعلـه النبوءة أو اللعنة من جديد .. أقرأ ما خطت اليد الثالثة ، المجهولة :

سيكون أن تقتلني امرأة .

أدري .!

فيالها من ميتة رائعة
أرتجيها بين العيون الجائعة ،
وفي المنافي المستعرة رغبة ،
بين الأحشاء النافرة التي لا أنفك أعود إليها ظامئاً ،
منذ ذقت طعمها الأول ،
يوم رضعت صدر أمي الرائعة .

ويرتخي القلم واضعًا النقطة الأخيرة .. يسقط بين قدمي ليصبح في طرفة عين ظل يتلوى ، يخايلني ، وكأنه عصا ساحر رجيم من سحرة فرعون ، ألقي بها حية تسعى .! هاهو مرة أخرى .. ظلي .. شيطاني .. الذي سطر بلونه القرمزي خطاياي كلها ، منذ عبرت خط الجهالة الأولى ، يوم أدركت طعم الرجولة المتأخرة.. طعم الكتابة.! ، وحتى وصلت إلى محرقة الندم هذه ، التي أجلس بين جدرانها ، في مثل هذا الصباح ، أرقب تحثر دمي فوق تلك الصفحات ، أكتب هذه الرواية القصيرة جداً ، التي أشعر أنها لن تكتمل إلا بمعجزة .! فيما يترنح خيالي بين أروقة الذاكرة المخمورة ، يخلط بين الصباحات المتشابهة . يفتش عن صباح مضى .. هو البداية ..

# ٨

صباح ..! وياله من صباح ..لقيط ..لا ليلة له..ولا فجر..! هذا الصباح الذي وعيت فيه خطوتي وقد وصلت إلى تلك الحومة من حلكة وضباب – التي قابل فيها مكبث ربات القدر بعد عودته من الحرب ملعوناً بدماء ضحاياه من الجانبين..المنتصر والمهزوم ..هي عتبة لابد أن أخطوها.. أو ..أموت !

أتذكر الآن هذه المسرحية بالذات .. مكبث .! فقد كانت هي العتبة التي انكسرت عندها قدمي.. ويدي.. ورقبتي مؤخرًا .! لكنني لم أعد أقوى اليوم على تذكر متي كانت تلك المرة الأولى التي طالعت فيها صفحات تلك المسرحية، التي أجزم الآن أنها ليست سوى صفحات من كتاب ملعون لابد وأن يرمي بلعنته على كل من يقع في سحرها الأسود..، ولذا فإنني يا طالما حذرتك منها تحذيراً خالصاً لوجه الله، حتى لا ترين ذل ما عانيت من اضطرابات وعذابات يبدو أنها ستظل تلازمني إلى النهاية ..

أتذكر أيضا نصيحة تلك المرأة الشامانية ( ايرينا ) – ، ولعلك تذكرين كم كنت تحبين أن أحدثك عنها ، التي تورطت معي ذات يوم في محاولة إخراج هذه المسرحية الملعونة للنور، وكانت هي المحاولة الرابعة قبل الأخيرة، أتذكر نصيحتها الحكيمة لي بعد فشلنا في تلك المحاولة، ألا أعود ثانية لهذه المسرحية اللعنة ، وإلا فإنها ستكون نهايتي المفزعة التي تنبأ بها طالعي عندما قال بموتي على حافة الأربعين .. وحيدا .. بلا أهل!

كنت ، وفي الليلة السابقة على ذلك الصباح ، قد رأيت فيما يرى النائم .. المقطوع عن الحياة اليومية ، السابح في النصف المظلم من الوجود .. ، المحلق نحو آفاق الروح ، في العمق المفتوح من الفضاء رأيت ... جحيم نهار يتخفى تحت ظلال الغيوم الخادعة ، والمكان .. قفر مجهول ، بساطه الممدود من رمل ملطخ ببقع دموية ، وتعبره من حين إلى آخر سلاسل دخان قاتم يشكل معنى السراب ، وبالجملة يبدو المكان

القفر وكأنه " حومة مهلكة من ضباب وقتام " كما وصفه شكسبير ذات مرة .. رأيتني قادم من بعيد غارقة يداي في الدم ، وبجواري الظل ذاته .. ظلي ، يحمل سيفاً . ! ، نسير ببطء خائري القوى وكأننا نسير في المكان .. وفي المقدمة تلوح لنا أشباح ثلاثة لا نتبينهم جيداً .. ها هن : ثلاث عجائز طاعنات في العمر إلى أبعد من المئة عام يتقدمن بخطى بطيئة ، من الجهات الثلاث ، يتشكلن .. فيصبحن عند اللقاء معاً على صورة طائر خرافي شديد السواد ، يحط بجناحيه عند المنتصف متقوساً ، وكأنه قد وقع على فريسة أخذ في التهامها . كنا قد وصلنا قربهن عندما حط طائرهن فأفسحن لنا مكاناً بينهن ، وهن يتنابذن ويتغامزن ضاحكات ، كاشفات عن جوفهن الكريه من بين الفكين الخاليين من الأسنان :

الأولى : لا مرحبا بكم ولا أهلا .!

الثانية : لا سلام بل كلام .. كلام .!

الأولى : يا أنت يا حامل القلم سكينا توسع الجراح !

الثانية : وأنت يا حامل الذنب هماً يفسد الأفراح !

الثالثة : يا لعبة الحياة ، أعداء في الليل ، أصدقاء الصباح .!

وما هي إلا لحظة حتى اختفين من حولنا ، أو تلاشين إلى سراب ، فقد رحن يظهرن في أماكن مختلفة ذات اليمين وذات الشمال وإلى الخلف في صور متحولة ، متغيرة باستمرار، ونحن نطاردهن عبثاً ..أذهب إلى اليمين ويذهب هو إلى اليسار فنجدهما وقد تلاقين في الخلف ، نبادرهن فيتوزعن ثانية .. وهكذا حتى نال منا التعب وسقط كل منا في جهة ، جثة متهالكة .. تغشانا ظلمة رطبة بلا نهاية ..

## ٩

ومازال الصباح بارد .. الكون يتهجى ألف باء الموت القادم .. والجسد ، جسدي ، قد تهالك للتو فوق فراش الوحدة المصمغ بالملل .. بينما كانت الروح لا تزال تطن داخلي ، طنين الأمس ، تود لو تمزق أكفان اللحم والعظام ، لو تسافر بعيدًا عن لزوجة الدم والعرق ، أو تصعد إلى نور بهاءها الخالص..

لحظات لم أدري حسابها .. غادرتني فيها نفسي محلقة.. فإذ بي أراني بين المنام والصحو وحيدًا فوق شاطئي البحر ، الذي بدا نصف ميت ، أخوض بجناحي في تلك الظلمة الرطبة ، اللانهائية ، أفتش عن النور خلف الأفق البحري الأزرق ، أصارع أمواج الليلة ، السابقة ، الداكنة .. وعندما تبينت بصيص ضوء .. رأيتني بينهن .. عشرات من الجثث المتراصة ، رصاصية اللون ، بلون الموت ، على طول الشاطئ .. ينظرن نحوي بعيونهن الواسعة نظرة شبقية مازالت تملأ فمي بطعم العنب الحامض ، الذي ذقته مرة من بين شفتي امرأة غجرية طلوق .. فلما أفقت شعرت من جديد بظمأ قديم يدعوني إلى ارتشاف ملوحة بحار الأرض جميعًا .. وأدركت أنها البداية .. نفس البداية .

ففي كل مرة كنت أظن فيها أنني قد حصلت على خلاصي الأخير من سطوة الأرواح الشيطانية التي تتلبس جسدي ، وتملأ أسماعي بالهواجس المغناجة ، والصور الشاذة ، الموصولة بوجود أنثوي ما ، كنت أعود لأكتشف أن اللعنة لا زالت تطاردني في كل مكان أحلق إليه بحثاً عن سلام الروح .

وهل كان بإمكاني إلا أن أسقط ، مرغمًا ، في تلك الوهدة الأبدية !؟ وما العمل إذا كانت تلك الصور الشاردة تمنحني من عنفوانها ، وانطلاقتها الجنونية ، ما يخطف مني البصر ، ويحجب عني البصيرة أيضًا ..حتى قبل أن تخالطني في صورتها المتجسدة القادرة على تفتيت فضاء الوحدة الموحش .؟ ففي كل مرة كانت تتشكل من حولي ، بصورة تلقائية غامضة ، دورة كاملة من الهواجس يبدأ بعدها نوع من الجماع السحري ، الرمزي

تمامًا ، ينتهي غالبًا إلى اتخاذ هيئة الحدث الواقعي كاملاً .. وتجدني أعايش تجربة التجسيد الواقعي المطابق لصورة الحلم الرؤيوي السابق . !

ويبدو أن هذه ما هي إلا شعيرة صوفية قديمة ، تلبستني منذ الطفولة الغامضة التي عشتها بين أناس يعتقدون أنني سأكون ولابد وليا أو شيخًا صالحا ، بعدما فوجئوا بولادتي مغلفًا في غشاء جلدي رقيق ، وبعدما اخترعوا لي كرامات عديدة ، ما تزال العائلة تتناقلها في الأمسيات الجامعة . !

هكذا إذن .. جاءت البداية ..! بداية قصتي معك ، التي حاولت منذ بدايتها ألا أصدقها وأن أضع لها نهاية سريعة ، عندما جئت ظهيرة اليوم .. ولعلك لا تدرين لماذا جئت.؟ وهل كنت تفعلين سوى أن تستجيبي لنصيحة صديقتك : " أن اقتحميه ، حطمي حاجز الخشونة ، واعبري إليه لكي تسلمي من سوء المعاملة الذي تقاسينه معهم جميعهم .. " .؟ أم أن هذه لم تكن غير ذريعة ألقى بها قدرك الشيطاني إليك علامةً للتجسد .!؟ وعندما أغلقتُ الباب ، لم أدري إلا وأنا أقودك من يدك بهدوء الواثق ، وكأنني أستعيد حدث ماض ، وأنت من خلفي مستسلمة ، ذاهلة ..على الرغم من خبرتك الطويلة ، المشهورة عنك ، في اغتصاب الرجال . !

## ١٠

تذكرين .. كان الصمت هو القانون الذي يشملنا سوياً ، حين رأيتك تتلاشين بين يدي في حوض الاستحمام ، الذي حملتك إليه ، بينما كانت يداي تفض عنك غشاء الملابس الملوثة بعرق اليوم ، والأمس ، وأيام أخرى تكرهين حسابها كراهيتك للنظافة كمبدأ ، وللاستحمام كممارسة..كنتُ كمن يضع علته ، أو خطيئته ، المقبلة تحت مياه التطهر .! فقد كنت ، كما سمعت عنك من أساطير ، مثل زهرة ذابلة تغذيها الأوحال والطين .. وكنتُ كمعلم ماهر يضع اللمسات الأولى لشيء يصنعه على مثال الصورة التي عاينها في حالة الهياج الرؤيوي ، التي رأيتني أصنع فيها هذا كله من قبل وبالحرف الواحد .. وعندما انتهيت من تعميدك أقصد حمامك وكنت لا أزال في بذلتي الرسمية ، بما فيها رباط العنق ، لففتك في منشفة كبيرة ، وحملتك كطفلتي إلى غرفة النوم .. وهناك وضعتك برفق فوق السرير وتحت الغطاء.. وتركتك لأنزع عني ملابسي المبللة ، وعدت إليك لأراك في نومك الهادئ ، كمن تذوقين طعم النوم للمرة الأولى .. مسحت فوق شعرك بيدي ، فلم تجفلي ، بل استغرقت أكثر في نومك المريح ، فأخذتك بين ذراعي ونمت .. نمنا نوما عميقا ، كأنه الفاصل بين حياة وأخرى .

فأنت الآن هنا .. وكنت بالأمس هناك.. وغداً تكونين..أين .؟ ليس يهم .! فما يأخذ بخناقك الآن وسيظل يخنق روحك الشاردة حتى تفلت من جديد إلى فضاء حريتك ، هو أن تجد نفسك ، وقد انتهي بك الأمر لكي تصبحين امرأة رجل واحد ، هو سيد جسدك ، والوصي على حريتك التي حصلت عليها مبكرة ، مثلك كمثل الكثيرات من أشباهك .. من نساء الظل .. بنات الغربة .. اللواتي ولدن على أرض غريبة ، وعشن مسحوقات بين رحى مجتمعين مختلفين ، فنشأن هكذا مشقوقات النفس ، ما بين وطن الأهل الذي لا يعرفن عنه أكثر مما يعرف السياح زوار الصيف ، ووطن الغربة العصي على الغرباء ، الذي يفوح برائحة الشواء البشري تنبعث من الأجساد المحترقة بلهيب الوفرة ، وجمرات التقاليد

المانعة ، الصارمة . بل لعل ما يجذبهن ناحية هذا الأخير هو ذات الرائحة التي امتلئن بها منذ وصولهن عتبة التحول الدامي ، الفاصلة ما بين سذاجة الطفولة وحرارة المراهقة ، تلك الرائحة التي تأخذهن بعيداً عن السطوة الزائفة لعائلة ممزقة ما تزال تعيش عيشة عابري السبيل ، أو اللاجئين .

ولأنك لم تنالى من الجمال الحظ الوافر ، بل القليل الكافى للقبول بين الناس، كما أنك لم تتمتعى أبداً بنعمة الذكاء ، التى تمنح العقل النور اللازم لاجتذاب الناس إليك. فلم يكن لديك سوى الجسد تقدمينه طائعة ، أو مرغمة ، لأول واحد من السادة أصحاب البلد كما رويت لى قصتك كيف بدأت وكأنك تدفعين كفارة وجودك الناقص ، الغريب ، بينهم، ولو كان الثمن هو هذا اللقب الذي أحببت ..عاهرة ، أو " مومس " كما كنت تحبين سماعها بلهجة الوطن الأم ..! ولعلك تدركين أن ثمة علاقة سرية بين العهر و الهوى .. تماماً مثلماً أدركت دائماً وعلى نحو غامض أن ثمة علاقة سرية تقوم ما بين الظل والجمال . !

وفي الحالين استطعت أن تحولي إدراكك هذا إلى موضوع للمتعة ، وأن تستثمر هذا الارتباط السري بين المتناقضات التي خلقت بينها . ففي حين تسعي النساء دوماً إلى إبراز مفاتنهن ، وما هو مثير أمام قطيع الرجال، كنت على العكس قادرة على أن تجعلي من نواقصك الطبيعية مصدر فتنتك الخلابة ، وسحرك السري .

# ١١

" لست بعاهرة ..ولكنني امرأة تعيش علـى هواهـا ، وعنـدي مـن العفـة مثل ما عندك يا شاتمي .." ..هكذا تقول بينكا في مسرحية عطيل.!

وهكذا كنت تدافعين عن نفسك دوماً ، في ساعات الصحو ، بعيداً عـن غيبوبة الفراش .! لكنك حـين صحـوت فجـأة فـوق ذاك الفـراش القرمـزي الغامض ، تحاولين فتح عينيك بصعوبة وسط سحابة دخان البخور ، التي أطلقها حولك رجل يفوح برائحة الوطن ، الذي تحبينه على البعـد فقـط ، تحاولين الكلام فلا تجدي صوتك بين صخب الموسيقى المخـدرة الغريبـة ، التي تشعرين بها تبث الأمان في كيانك ، وتملأك بشعور ناعم بعدم الرغبـة في شيء .. كنت نائمة .. تهذين كأي عرافة أصيلة ، وكان الكلام يملؤك ويسيل على جنبات روحك سائلاً ناعماً ، شاعرياً ، لا تدريـن مصـدره بينمـا جلسـت أنـا كتمثـال الكـاتب المصـري أدون مـا تحلمـين علـى أوراق جسدك المبللة بعرق المحاولات الأولى للتوافق :

" فوق الرمال الباردة .. تمددتُ عارية إلا من كومة شعر تكلل جسدي ، وتغطي بخصلاتها المتكسرة عصابة أفكاري الشـقية ..الخائنـة ..تلـك التـي تسعي إلى تسليمك جسدي رهينة ..فلتقتحم بوابة الشيطان المؤدية إلى باحة روحي المظلمة .. فأنا أريدك هكذا دوماً ، رافد أبدي يملأني فيضـه الغزيـر بلا انقطاع .. يسد ما بيني والعالم من منـافذ ، فـلا أعـود أشـعر النقـص ، الذي يهز كياني ، ويجعل مني مجرد خرقه ممزقـة تمسـح بقايـا الكـل .. فهكذا قضيـت عمـري السـابق بطولـه علـى قارعـة الزمـن .. لكنـني كنـت أنتظرك دائما أن تأتيني فوق الرمال الباردة ، ومن كل الجهات .. لم أكـن أعرفك حتى هذا الصباح الشتائي الملون بزرقة السماء وصفرة الرمـل وحمـرة الدماء وطعم الخمر ورائحة البخور..لا..ما كان يجـب لي أن أكـون هنـا .. ولذا أحاول النهوض .. فأشعر بنفسـي وكـأنني غصـن مكسـور علـى كـف الريح.. يرطبني عرق ذكرى بارد .. تحاصرني لزوجة جسدي .. فأعود إلى

النوم من جديد ."
وكم كان ذاك النهار طويلاً ، ممتداً بلا انقطاع،يعاني شعوراً غامضاً بالنقص ، يختبر الاكتمال في باحة جسدك النافر ، يتحدى فحولتي النائمة منذ ما يقرب من عام لم أمسس فيه امرأة ، وحتى توافق إيقاعا جسدانا ، وتآلفا .. زوجان متناغمان .. لم أدر كم مر علينا منذ ذلك الصباح .. أسبوعاً ، شهراً ، أو أكثر .! وكأن الصباح لا يزال ماض حبيس الأمس الموقوف ، أو لعله صباح الغد القادم .! ، فمازلت بجانبي ، ومازلت أعاني فيه هواجس الصحو المتأخر..
وكم كان لزجاً ذلك الصباح الغارق في بحر من عسل الصحراء الغامض ، حتى أنني لم أنتبه للنبوءة القادمة التي حملتها إليها أصابع غير مرئية تدق أرقام هاتفي ، ولا لصوت واحد من فرسان الزمن القديم المزيفين راح يرن في عمق الجمجمة الفارغة ، جمجمتي ، الملقاة فوق الوسادة مثل كرة الرمال : " ثمة مؤامرة.. كن حريصاً.."
حاولت أن أفهم ، تمتم في أسي مشفقاً على سذاجتي المفرطة:
" يا بني.. أنت الآن هنا في قلب المعمعة .. حاول أن تفهم الشيفرة ! "
هكذا نطق صاحب الصوت النحاسي الرنان كلمة الشفرة .. بدا لي أن الأمر بالفعل جد خطير، ومن ثم توقفت عن الفهم! وعبثاً حاولت أن تعلميني الدرس ، درس الواقعية .. المواجهة بوجه مكشوف ، وقح ، فقد كانت تلك واحدة من مواهبك القليلة ، الوقاحة .

## ١٢

ألا كان لابد من الصحو بعد ذلك البيات الطويل !؟ غمغمت دافعاً نفسي خارج البناية الحقيرة التي لم أرتح لسكناها منذ اليوم الأول .. فاجأني وجه الحارس البارد ببرودة وجوه القوادين فلم أعره اهتماما ..ومضيت..أحاول أن أتبين موطئ قدمي في هذا التيه الجديد.. وقد عرفت أنني بالفعل مرتهن على شفا وشاية أو خازوق بلا ذنب سواك ، خاصة وأنني مازلت وافدا جديد على إحدى بيوت آكلة النمل الذين يمدون خراطيمهم حول كل كيان غريب، لتمتص ما قد يتجلى من دماء الدهشة الناصعة .. ( هذا إذن ما تفعله أيام الغربة ببعض البشر عوضاً عن شحذ وجدانهم على نيران الشاعرية المرهفة ، حين تستطيل أنيابهم، ويموت فيهم بريق العيون، وتمتد الأنوف لتصبح خراطيم واسعة لا تري ولا تسمع سوى بريق ورنين الدينار، أينما يبرق تهرول ، أينما يرن تسعى ) وهاهي تلتف حولي..ترقص رقصة وثنية ، مسعورة ..تفتش عن نقطة دخول لكي تندس تحت جلدي ، وتقبض على تفاصيلي الصغيرة ، تلملم خيط حكايتنا ، وتبتسم ..؟

وهاهو أول خيط المكيدة ، التي كنت أنت أداتها .! كانت الخطة مناسبة جداً .. بدأت بكبيرهم عندما مال على خليلته ذات الوجه الشيطاني الصغير ، فيما كانت تعتصر بقايا دمه المتخثر : " هذا هو من أريده الآن .. أرسلي إليه واحدة .. " ولم تكن هذه إلا المقدمة التي سبقت نصيحة الصديقة إليك : أن اقتحميه. أليس هذا هو ما صرحت به لي فيما بعد .؟

وكم كانت اللحظة مواتية .. فقد كان الكيان كله مفتوحاً إلى الخارج .. وأنا هنا وحدي ..عارياً حتى عن الذكرى ..لا أهل .. لا صحبة .. بل الموت البارد حتى النخاع .! ولم يكن بد من السقوط ، وما كان سرا بيننا ، أصبح قصة ترويها همساً في المساء ، لتغدو رواية النهار .! تري هل كانت تلك وسيلتك العاجزة لامتلاكي بين يديك ، وحمايتي من عيون

الأخريات .؟ أم أنك كنت تجدين متعة خاصة في أن يعرف الكل من هو سيد جسدك ، وماذا يفعل معك من فنون الهوى .!

ولكن إذا كان هذا كله أو حتى بعضه صحيحاً ، ففيما الخيانة ، وفيما احتياجك للآخر الذي ضبطتك تغتصبينه خلسة ، وتعتصرين خلاصة جسده المقروح .؟ وعندما واجهتك بفعلتك لم يهتز لك جفن ، بل على العكس واجهتني بكل الوقاحة اللازمة : هذه هي أنا .. فأفعل ما بدا لك .! لكن تلك قصة أخرى لن آتي على ذكرها ، حتى لا تفور بداخلي من جديد سورة الندم ، وتقريع الذات .!

ألم أقل لك إن الوقاحة هي موهبتك الساطعة ، لعلها هي الوحيدة ، وإلا لماذا أنكرتني ساعة تواجهنا على بساط الفضيحة .؟ ألم تقسمي ذات مساء كاذب : دمي فداؤك يا معلمي ويا أبي ..؟ لماذا أنكرتني إذن حتى قبل أن يصيح ديك .؟ يا دم الخيانة .. هل كان يهوذا نصف امرأة .؟ وإلا من أين جئت بهذه القسوة الذكورية الباردة .؟ وكيف تبدلين وجهك ما بين مساء وصباح ..؟

# ١٣

صباح هو كالمساء ..عنيد.. هو هـذا الصباح الـذي يشبهك أيتـها المرأة الأخيرة ، العنيدة ، أنت يا من أدمنت طعـم احتراقـها بـين يـدي..والـتي أشعلت النار في حياتي كلها مرة واحـدة .. أطلقـت تحـت قدميـه البخـور والطيب..لكنه أبداً لا يلين.. ومن ثم تركته خارجـاً إلى البحـر .. ترافقنـي غمامـة حـزن مُقبضـه.." لا بـأس ".. قلتـها ولم التفت إلى الـوراء.. فـهذا صباح ، أو مساء ، للحزن ، أراه يدعوني لكـي أعبر مطـهر البكـاء القـائم هناك على تلة الذاكـرة المعتمـة حتـى يبـين . طـالعت بعـين الخيـال صـور الراحلين جميعاً علني أعتصر الدمع العصي .. ولم أبك.. للمتُ صورة أمـي خلف عيوني، وأشعلت حنيني إلى صوتها الدافـئ ولمستها الخجـول.. ولم أبك.. عاينت معنى الوطن والغربة، الألفة والوحشـة، الانتمـاء والإبعـاد.. ولم أبـك.. وفي لحظـة .. أظلـم المكـان حـين اختنـق القمـر بغمامـة حزنـي وخسف نوره، واختفي البحر من تحتي ليصبح هـوة سـحيقة،مظلمـة، بـلا قرار.عندئذ.. بكيت كما لم أبك من قبل..، وعندئذ فقط أدركت أنني مازلت حياً.. موجوداً بدونك ..!

ولكنني ، وعندما عدت إلى الفراش المضمخ برائحتك ، لم أسـتطع عبـور تلـك الليلـة دون مـا هيـــاج يشـتعل بـــي ، ويشـعل النـــار بـأحلامي ، وهواجسي ، التي لم أعد أرى فيها سواك – سوى الظـل – وهكـذا رأيتـني الليلة سادراً في ظلمة لانـهائية ، أتعثر في كمية هائلة من السلاسل الحديدية المقيدة إليها أطرافي ، التي تضاعف عددها بصورة مخيفة ولكن بلا فائدة .. فكُلِها مرتخية ، تزحف بصعوبة مـع كـل خطـوة مـني ، فـاقدة الحـس ، منهوكة القوى ..!

هكذا رأيتـني فجـأة أجرجـر كيـاني الممزق هـذا في شـارع طويـل ضيـق محفوف جانبيه بصـور ضخمـة كلوحـات الإعلانـات ، أقـرأ فوقـها ظـلال وأشباح ما حققته في حياتي من نجاحـات مزعومـة . ! ويبـدو أنـني كنـت أمضي منذ زمن طويـل لم أستطع حسـابه أو حتـى التفكـير فيـه ، وكنـت

بجواري ، نخترق فضاءات مفتوحة مكللة بسحب وغبار معتم يحجب عني رؤية النهاية ،كنا معاً نحاول اللحاق بشيء ما .. لا أدري ما هو .! بل أنني لا أذكر هل كنت أنت من يلاحقني ، أم أنك كنت معي !؟ فعندما عاينتك جيداً ، رأيتك .. ظلاً رخواً .. لا يكاد يقوى على الوقوف .. كائنا متهالك ، يكاد يذوب ضعفاً . ولما حاولت أن أساعده آخذا بيده ، انخلعت وسقطت مني ذائبة . ! عندها قررت أن أتخلص منه ،من فرط الرعب ، فضربته .. ضحك ، ولم يستطع التوقف عن الضحك ، فقد اتسع شدقه حتى تلاشيا ، ثم سقط بحركة تمثيلية . وأنا أنظر إليه مشدوها لا أدري ما الذي أصابه .. وفجأة ، وبحركة تمثيلية أخرى ، ركع على الأرض وطعن نفسه بخنجر ورقي ، ليسقط ثانية من الضحك . !

## ١٤

كان علي أن أفهم المعنى القادم خلف نبرات صوتك الجريح ، ونظراتك المكسورة لي قبل أن أغادر المدينة التي عاشت فصول قصتنا المتقطعة .. فقد كانت تلك هي النهاية بالفعل ، بعد أن أدركت ، واقعياً ، أن لي أناس آخرين أعيش من أجلهم .. أطفال لا ذنب لهم في أنني هذا الهارب دوماً من جحيم الاستحواذ النسوي ، إلى حيث أقع من جديد في مصيدة أخرى .
كان علي أن أفهم ، وأن أحاول مسح صورتك عن ذاكرتي .. لكنني لا أفعل .! جل ما أستطيع هو الهذيان عن المساء والصباح .. والوقوف أمام المرآة.. أود أن أقذفها بحجر، وأن أصرخ بوجهي : " أنا مذنب" ، كما قالها عن نفسه مرة يوسف إدريس ، مذنب في حق طموحي الضخم الذي بدأت به حياتي. والذي رأيته بعيني يتضاءل وينكمش أمام كل هاتك القصص الصاخبة التي زججت بنفسي فيها الواحدة تلو الأخرى متغافلاً عن حقيقة الدور الذي يجب أن ألعبه في الحياة غير أدوار العشق والهجر والزواج والطلاق والمشاحنات والمعارك الصغيرة..!
كان علي أن أفكر ألف مرة قبل أن أعاود الاتصال بك .. ولكن ماذا أفعل .. لقد اشتقت إليك .! أقولها بلا خجل .. فهل تسمعين .؟

منكسر القامة أمشي .. أحمل رأساً مثقوباً
يبعثرن خواء الطرقات .. ولا يجمعني إلاك

هكذا يخرج صوتي اليوم جريحاً ، مشروخاً ، لا يسمعه سواي في مثل هذه الساعة من الليل البارد القسمات.. حين يرتد الوجود إلى نقطة العدم الأصلية متدثراً تحت غطاء اللا شئ الممتد، لابد للأجساد من رقاد بينما تسبح الأرواح اللطيفة في مزيج مختلط من رؤي الماضي وهواجس الغد، وكأنما يمارس الكل تدريباً يومياً على الموت دون فائدة !
ففي مثل هذه الساعة يصحو " الغريب " تتآكله الجراح ، تأبي الرقاد، بينما تقف منه الروح عند زاوية الحلق تستجدي خلاصاً نهائياً.. ولا يدري ما العمل.. يدور بين الأماكن، يختبر الحواس المرهقة، يراجع كومة الأفكار الذابلة.. ولا فائدة هو الآن يسقط مثل حجر ألقته يد الصدفة من فوق

الجبل، يبحث لنفسه عن وقفة أو عودة أو حتى تغيير المسار.

فالآن أدرك ـ للمرة الألف .! أني كثير ما أهدرت دمي سُدى بين أيادي الآخرين، حين فتحت شباك القلب على مصراعيه فجأة وبلا مقدمات لكل من تطوع لي بلمسة حانية أو كلمة رقيقة ولو بمحض الصدفة.! و أنني منحت كياني وما حوله من حقول الذكريات الغناء لكل من سأل صداقة من أبناء السبيل والمحرومين، حتى لم يعد لي فيه شئ هو ملك خاص لي أنا المالك الأصلي!

أنا الآن هنا ..على مبعدة يوم كامل وبضعة ساعات منك .. أرقب ظلال العمر المتآكل خلفي .. فما الذي فعلت بنفسي ..!؟ يأتيني صوتك باكيا في حرقة ، ولا أصدقك :

ماذا تريدين .؟

لا شيء أريد منك .. فقط أود سماع صوتك .!

وبعد .؟ ولا شيء .. بكاء كأنه العويل .. أستشعر ما أنت فيه .. أسألك :

وأين أنت .؟ أظنك لديه .. لا تنكرينه .. لا تقسمي .. فأنا أعرف كل التفاصيل .!

ولم أكن أعرف شيئاً عنك .. فقط يقودني الحدس إلى تخوم التوقع القائم منذ البداية سيفاً فوق قلبي .. فقط أدرك حاجتك لي .. فتأتين .. ولا شيء .. لا شيء غير البكاء كأنه السيل يغسل قدمي .. حتى هذا الهوس القديم الذي كان يحيينا من بعد موت الفراق ، كأنه تلاشى إلى هباء .. ولم يعد للقائنا المحموم طعماً .. ولا شيء .. لا شيء غير البكاء كأنه طقس الغفران .. ولكن من يغفر لمن ..؟ تبتلعين الطعم الساذج وينفلت لسانك بالحكي عنه .. كيف تركتك ضائعة .. كيف تلقاك .. آواك .. كيف تكررت القصة ذاتها .. قصتنا مع الفارق .. فأنت ، كما تقولين ، تعيشين معه بالجسد فقط ، بينما قلبك يسكن هنا معي ..! كلمات .. كلمات .. العشق .. الخيانة.. الوفاء .. ولم أعد أسمع شيئاً ..!؟ وهل تعرف الأفاعي معني الوفاء؟!

# ١٥

ولا شئ هنا.. لا شئ سوى الانتظار الذليل.. فإلى النوم.. إلى النوم أيتها الذاكرة..، أيها البال الشقي ، أيتها الجثة التي هي أنا ، انفضوا عني كل الأسماء العالقة ، وامسحوا عني كل الصور السابقة، لكي أولد من جديد.. أنا الهارب من النوم إلى النوم، لا أطيق صمتاً أو كلاماً.!

ولم يعد بي هاهنا مستقر .. أهرب .. ولكن إلى أين .؟ أهرب إلى المرأة الأولى.. فمنذ عرفتها وأنا اسأل السؤال ذاته: ما الذي يجمعني بك أيتها البعيدة القريبة!؟ وتمر السنون ولا اكتشف الإجابة إلا اليوم.. في مثل هذه الساعة من ليل الغربة الباهت وأنا مهزوم، محاصر، هزمتني نفسي، أنا المحاصر بنقائصي وعيوبي .. وما المانع فقد صرنا اليوم أصدقاء رغم كل ما وقع بيننا قبل وبعد الطلاق الدموي ..! ومن يمكنه اليوم أن يفهم علتي ، سوى امرأة خبرتني عشر سنوات ، أو أكثر .؟ أفتش عن منفذ في الجدار.. ولكن " ينقصني الوقت ، وتنقصني الجرأة ". ولكن لابد من العود مهما طال السفر. أحزم حقائبي إليها مثقلة بالهموم ، وبما تبقي من كومة أعصابي المحترقة .. ألقاها .. فأسافر بها إلى البحر الذي جمعنا منذ زمن، والذي شهدت أنت بعض نزواتي الدامية على ساحله ..وهناك يعود بي صوتها القديم ، يهدهد طفولة قلبي النيئ..، فينام إلى أن توقظه ريح آثمة، جديدة.!

أما أنت.. فلن أقول إنك نقطة ضعفي " كما تصدح الأغنيات" ولكن الحق أقول لك : إنك ضعفي ذاته، نقيصتي، نصفي المعتم، فلولاه.. لولا ضعفي ما كان لك أن تقتربي من حدودي، لكنك ظهرت في مثل هذه الليلة المعتمة من ليالي الربع الأخير من حياتي بعد أن ظننت انه قد انتهي كل شئ وانه لم يبق لدي سوى جسد يمكنه أن يعيش حياة القطيع ، بلا طموح، بلا أمل في غد.. وأنني لست سوى شخص زائد عن الحاجة لا يصلح إلا لكي يكون متاعاً لعاهرة تفترشه وقتما تشاء!! ولولا هذا ما كان

يمكن لكل هذه الصور التي يستعيدها خيالي المريض بك أن تظهر إلى الوجود، فما هي إلا صور تجسد هزيمتي المرة بوجه المستقبل وعلى أن أنساها لأنها ببساطة شئ مخجل كأي هزيمة.

## ١٦

صباح مختلف.. هذا الصباح الذي تفرزه عيناي بين صباحات متشابهة كذرات الرمل تذروها رياح الزمن الماضية نحو النهاية ، بلا اكتراث . أتوقف قليلاً لالتقاط بعض أنفاسي ، بعد أن قطعت كل هذه المسافة طائراً بعيدا عنك ، عن جحر الأفعى .. إلى كهف العائلة المعتم .. فكم كان صعباً أن أغادر بعد أن تسمم دمي بلعابك القاتل ، وأدمن كياني الغرق في مرارته الشهية .. !

ولكن مهلاً .. فهذه بقية منه .. من صباح الأمس ، الذي يستمر فاصلاً بيني وصحراء الماضي القريب ، التي تغطي رمالها الربع الأخير من حياتي .. هذا الربع الخالي إلا من حكايات الهولات اللواتي تناوبن على سحق عظامي ، وارتشاف دمي ، في جحورهن المظلمة . فإلى متي سأظل هكذا مطاردا بشوارد الفكر ، وشواظ الهواجس ، التي تمنعني عن استكمال مخططات العمل المتراكم بين تلافيف العقل .. تنتظر لحظة الإنجاز المؤجلة دوما من صباح إلى صباح .

ليلة صدئة بغير بهاء .. أحاول الخروج منها إلى النوم .. تمنعني هواجس محمومة تهز الكيان الرجولي المرتعش فوق فراش الانتظار .. فيما تتدافع عبر حدودي في وقاحة أطياف الهموم الكسيحة ، تقطع الليل من غرفة الذكريات المعتمة ، إلى مقبرة الأمل . تسقط في الحلق فجأة قطع مهشمة من صوتك القديم ، تلقينها إلي عبر الهاتف الخادع .. أكاد أختنق..أشعر وجودك يقترب .. بقايا امرأة ، تسقط بين يدي تستجدي الحماية .. ولكني وللمرة الأخيرة .. أغلق الباب بوجهك .

وهاهو صباح جديد.. هذا الصباح الذي أفيق إليه من بعد طول رقاد في فراش الندم، فأجده ملفوفاً في قماطة الأمس الملوثة بدمي المستباح ، دم المهرج المفتون دوماً بتحطيم الثوابت ، وتمزيق الأقنعة ، المستثار أمام صلف اللغة النبيلة، وتعسف القواعد، وبريق النجوم..مغامر يلعب لعبة النهاية

وكأنه طفل يضحك للموت، يخلط الأوراق، يبعثر الأسماء والحروف، يخرق عين الأصول، ويقذف وجـه الفضاء المريـع بأحجـار الـنزوة، يغـني أغنيـة الاختلاف.. فيستحق الموت، موتي المتكرر بانتظام، موت سيزيف..!

## ١٧

آه ..كم هي طويلة تلك المسافة ، التي قطعتها منذ تلك اللحظة التي قررت فيها التوقف عن لعب دور فاوست، وفسخ عقدي الأخير مع شيطاني، الذي سماك "ليدي مكبث" أو امرأة الظل.. مسافة كافية لكي أتوقف قليلاً التقط أنفاسي اللاهثة دون خوف من العودة إلى الوراء، فمنذ مضيت وحتى وقت قريب وأنا اشعر به يتبعني، يود لو يعود بي، لو يلقي بي مرة أخرى بين أنيابك تمتص كياني بلا ارتواء..

مسافة طويلة حقاً.. قضيتها زاهداً، متطهراً، أسعى حثيثاً إلى الخلاص من عبودية الحاجة، وهوان الرغبة ، أبحث عني، وادفع الثمن غالياً، ثمن الخطيئة. أصارع هذا الشيطان ، الوحش ، الذي يهرب من دمي إلى الخارج ، وبالعكس ، مثل طوفان نهر عات افلت من عقاله ليجرف في طريقه تفاصيل حياتي يوماً بعد يوم .! هذا الذي يمنع على راحة النوم، ولذة العمل، ومتعة التأمل.

وهل يمكن ألا يكون هذا كله غير مقدمة طويلة للنهاية الحتمية المرعبة ، التي بدأت فصولها المتلاحقة منذ عودتي إلى الوطن من بلاد الغربة السابقة محملاً بطموحات كبرى لم تجد لنفسها طريقاً للتحقق.!؟

قد أحسب في لحظة غفلة أنني أسير عاطفة ما، أو حالة فراغ موحشة ، وأن ما أحتاجه هو الرفقة الدافئة لا غير.. لكن هذا ليس سوى تبرير مضلل..فأفضل ما في تلك الأيام العصيبة التي عانيت ثقل لحظاتها فوق القلب، ولوعة هواجسها تسحق العقل، هو أنني، وربما للمرة الأولى في حياتي، أجد نفسي أمام هذا اللون من اختبارات القوة..فقد كنت، ولزمن طويل، أحسب أن بي شيئاً من الضعف تجاه مغريات الحياة، فلا اذكر أنني كنت يوماً بقادر على مقاومتها..أما الآن فها أنا أواجه، وبعنف قاس ، تجربة الامتناع، ومراقبة الذات، أنا الذي بقي طويلاً رافعاً شعار " إلهنا.. لا تدخلنا في تجربة "..

## ١٨

مساء لعوب.. ألعب مغمضاً لعبة الخطر على حبل الوهم المشدود بين عيني امرأة أخرى ، تهجر عش الزوجية البارد ، وتأتيني .. تلهو بالكلمات الملغومة ..هي لا تدري أن اللعنة تحاصرها، وأن الانفجار قريب، وأنه لن يكون لها من بعد وجود إلا في سجل الضحايا..لكنها اختارت لعبتها، وليحمل كل ذنب خطيئته وحده..

أحبك .. يا للكلمة الناعمة تسقط هكذا من فمنا ـ دون عناء ـ وتعود مثل قطعة اللبان بلا طعم .! نطلقها في وثوق رماة محترفين تعودوا إصابة الهدف من الرمية ـ الكلمة الأولى.!

احبك .. يالها من كلمة قاضية ، تخترق صدر الضحية الغبية دون ألم ، بل على العكس في لذة واضحة ، لتستقر في موضع مخصوص من القلب ، تنتظر الوقت الكافي ، قبل لكي تصدأ ، ثم تنفجر تنشر في الكيان المصاب سمها القاتل . أحبك .. قلتها ، تسبقني يداي ، تفك عن الجسد ، الملتف حول نفسه ، إزار المقاومة المهترئ كلمة واحدة .. أحدث وقعها على مسامعك انفجارا هائلا ، سقطت بعده كافة خطوط الدفاع الواهنة مكرمشة بين قدميك لتسحقينها بعد لحظات قليلة ، قبيل أن تستسلمي تماماً أمام هذا الهجوم المباغت ، الذي استعدت جيدا له منذ فترة طويلة عبر دفعات متلاحقة من الاستفزاز الأنثوي المخطط ، يمتلأ كيانك الظامئ بالخدر اللذيذ المنساب تدريجيا ، مع كل مرة تتكرر فيها على مسامعك نفس الكلمة..احبك.!

ولكن لاشيء يكتمل .. فها هو يأتيني .. صوتك من بعد دهر كأنه الموت متسللا في عتمة المسرح المختار للعرض..أخرج عن النص، أرتجل عشقا حقيقيا، لا أسمع سواك.! ولا أفيق إلا على تصفيق الجمهور يطلب إعادة المشهد..ولكن..هيهات قد غيب الوهم المصنوع لون الحقيقة الناعم.

صباح بحري... أصحو إليه ، فإذ هو كالمذهول بين أيادي اللاعبين ! لا..ليس هذا هو البحر الذي غادرني.. لا.. فلم يعد بعد هو البحر .! ، ولم

أعد أنا هو الذي كان .! أنا المسكون به يغسلُني أم يُغسّلني ؟ أنا المربوط دون غيره يحاورني ..، أنام فلا صحو منه. يغمرني بالمد يغرق ماؤه حلمي.، وأصحو دون نوم يخامرني.، أخاف لو يعود مخيبا ظني .

مساء هذا أم صباح .! لست أدري..فصباحي كالمساء.! رهن المحبسين.. الكلمة والحلم يتناوبا الروح من ضباب إلى سراب، يحيط بي حضور غير مرئي..يقشعر له البدن. تري هل هذه هي أنت التي كنت أسبح شهورا طوال . ضد تيارها الجارف،المدمر.؟ هل هو شيطاني الذي سماك يعود بك مرة أخرى إلى شاطئي المجدب بدونك.؟ استمع لصوتك من جديد يهدر ناعما يفتت تلك الصخور التي وضعتها بمحاذاة القلب المحموم بك لتصدك عنه..ولا فائدة بعد..فالغرق فيك هو القدر الأخير.!

صباح تال .. ولكن ليس بحساب الواقع، لعله بعد يوم أو أسبوع أو أكثر..لست أدري.. فقد قررت اختصار المسافة بين الداخل والخارج، لكي ألقاك في منطقة محايدة بين القلب والعقل..فهل تأتين إلي يا امرأة سميتها البحر بعد ما أدركت ألا سبيل لامتلاكها سوى فقدانها، والتخلي عن كل عاداتي القديمة ، عن رغبتي الموروثة في سبي النساء والتفاخر بالشرف في ساحة القبيلة، ولأقفز إذن إلى البحر بلا تفكير فيما بعد الغرق.!

قطرة زمن .. هي مساحة التجربة المستعادة.. فالانتظار ، والحضور ، والتجسد ، وحتى التلاشي .. لم يستغرق هذا كله إلا قطرة واحدة من الزمن الخاص الذي يضن علينا بدقائقه، بينما يتركنا لهذا الزمن العام يسحق قلوبنا كآبة ، بثقله وبطئه المميت وطعمه المر في الحلق الظامئ.. قطرة واحدة وترحلين إلى شاطئ آخر يحتوي أمواجك الدافئة، وينام غير عالم بكل ما في قاعك من لآلئ وأصداف ملونة وعوالم مدهشة ! قطرة واحدة..وأعود إلى وحشة الصمت والوحدة في منفاي الاختياري الأخير .

فهل كان لنا إلا أن نفترق ذات شتاء .. مثلما التقينا عشاقا ذات شتاء.؟ هل الفراق هو وحده القدر المسلط فوق رؤوسنا .. واللقاء صدفة عابرة

لا تدوم.؟

ولماذا لا تمنحنا الأقدار إلا مالا نريد.؟

أطالع صورتي في مرآتك فأراني..زهرة صبار يتيمة..يدخلها المنام من صحوها ، ويخرجها الصحو من المنام .. فلا نامت ولا تصحو ! فهاأنذا قبل منتصف الليل .. وكلما يغفو الجرح المتورد بين أضلعي يشتهي مذاق السلام ، أجدني ماضيا كالمسحور أفتش عنك .. عن قاتلي ، لا لكي أنال منه ثأري ، ولكن لكي أهديه الجرح نفسه يطعنه من جديد .!؟ هكذا جئت من جديد .. تغافلين الحراس ، وتعبرين أسوار المنفي القديم .. زهرة عشق دموية ، تنبت بين لحظة وأخرى .. فيكون نهار ، وتكون حياة .. ويكون الألم.!

قالت : يا أيها الجسد ..اشرب من جراحك ، ولن تموت ..

ويا أيها القلب ..إنك حي ، وإنهم من حولك ميتون !

فلا تحاول الفرار .

لا عاصم لك اليوم مني ، سوى آية العشق الأولى .. وبعضا من جنون !

قلتُ : ( بعد طول صبر ) عذرا..قد فات الأوان .

## ١٩

تعقيب ..

اليوم أقول عنك : إن من قابلت هنا ، على ساحل الغربة الأخيرة ، لم يكن وجه الشيطان المفزع الذي سمي باسمه خطاياي كلها ، لا .. ولا هو بالطبع وجه ملاك الرحمة الحنون يمسح بعينيه فوق الجراح فتتسلا شي إلى سراب .. لكنه وجهي أنا .. نفسي المزدوجة، المنقسمة بين ضدين ، خصمين يتنازعان أيامي.. نفسي التي تعبت هربا منها بين الأماكن ..كلما ظننت أني نجوت ، وجدتني مكبلا بحبالها المعقدة أكثر فأكثر .. غارقا في ليل كموج البحر.. هو الليل الفاصل ما بيني وبيني.! تجوس في ظلمته أطياف الأمس الجريحة ، ترقص رقصة العذاب يدا بيد هواجس الغد العمياء..

فلما الإنكار.؟ وكلنا منقسم ، مشطور ، بالفطرة .. زوارق نوح تمخر بكل زوج عباب الطوفان الممتد منذ بداية السقوط إلى أرض الغربة الأولى وحتى يحين الميعاد .!؟ ولاشيء يجمعنا إلى الآخر/المختلف سوى رغبة غامضة ، لا نمتلك حتى حق الإمساك بها ، رغبة التوحد .. العودة إلى دفء وحميمية الذات الأصلية قبل الانشطار الأول ، وما أعقبه من إنشطارات متتابعة حتى اليوم .

ورغم أنه هو الجحيم .. فنحن نحبه .. ذلك الآخر..! نعشقه..! لأننا نحب ذواتنا ، ولأننا نعاني جرح النقص ، نتوق إلى الاكتمال.. فنبحث عن الجزء الناقص فينا ، وعندما نجده ..لا نصدق أنفسنا ..بل لا نريد أن نصدقها .. فهذا الآخر بالذات هو مرآة الروح المخفية خلف القناع اليومي الكاذب.. الروح الشيء الحقيقي فينا .. و" لاشيء حقيقي إلا كل ما هو مرعب " .. فيا لرعب العشق .. الحقيقي !

## ٢٠

تكرار...

دورة زمنية ، أو دورتين .. ويعود كل شيء على ما كان عليه من قبـل، وكأن شيئا لم يكن. ! فلا كانت الجـراح ولا كـان الألم..! فلمـاذا لا يتعلم الإنسان من تجارب الروح شيئا.؟ وهل من الطبيعي أن يكون العقـل عـاجز هكذا أمام كل ما يخص القلب.؟

مرة أخرى تعاودني ذات الهواجس القديمة ، ويعصـف بـي النـدم علـى ضعفي أمام هوي النفس .. نفسي التي ترتدي وجهي ، ولكنها تأبي المثول أمام عقلي . هكذا أقف الآن غير مصدق..أكاد أصرخ أمام مرآتي :

إلي..إلي..أيها القناع الباسم..الأبله..أيها المخدر الناعم..

خبئني خلف سحابة دخان..ابعد بي عن الكل..أبعدني هيا عني..

والآن .. هاأنذا أقـف بوجهي المزدوج ، أشعل شمعة ، على هيئة علامة استـفهام ملونة ، وحيدا رغم كل شـئ فليـس بجـواري سـوى بقايـا مـاض مهجور. أفتـش عن طرف خيط يكون هو السبيل إلى الخـروج مـن كـل هـذا التيه الذي أعيش ، فلا أجد سواه .. هذا الظل القميء .. ظلـي .. ضعفـي .. هذا الضعف الذي يدور بي من الذات إلى الآخر.. من الداخل الهـادئ إلى الخارج الجحيم ، وكأنه إعصار ممتد يشمل كياني بلا نهاية..! هذا الذي يزرع الشوك والنار مـن حـولي فـلا يطيـب لي مقامـا..والـذي يفنيـني ويبعثن بين لحظة وأخرى..!

هذا الضعف.. لو كان رجلا لـقتـلته.




# أيام الغربة الأخيرة

## هذيان في الزمن الضائع
## بين الحياة والموت

وفي صبــاح اليوم الألف ، من أيــام
الغربــة قبل الأخيــرة ،
سمعت صوت القدر بقلبي :
سيكون أن تموت وحيداً
- عليٍ حافة الأربعين -
غريبا .. بلا أهــــل..!

الكويت ..

صباح اليوم الأول من أيام الغربة الأخيرة .. العام ١٩٩٤ ..

هاأنذا أسعى إلى فضاء النهاية ، فوق كتفي جبل الذكريات اللعين ، وفى القلب بقية من رماد الحريق الأخير الذي أتى على آخر أمل له بالنجاة من سجن الماضي الموبوء بألوان العقارب والحيات السامة .

أمضي بطيئاً .. وحيدًا .. غير نادم على وحدتي .. ليس أمامي شئ ..فكل الأشياء هناك كما خلفتها ورائي .. فلا شئ يهم الآن .. ولا شئ بمقدوره أن يكدر صفو وحدتي ، وسعي المتثاقل نحو النهاية .. سوى هذا الجسد الثقيل .. باب البلاء المفتوح إلى الخارج دوماً ينتظر العابرين .. كي يعرف طعم الحياة .. وما عرف .

أما فضاء النهاية ..فها هو ، تماما كما رأيته في أحلامي من قبل ، أفق ملتهب تسبح فيه صحراء ، " حتى الذئاب تخشى ظهيرتها " .. فضاء فارغ .. هو ما رأيت من عل مثل بحيرة رمال متحركة لا نهائية.. أهذا ما يظنه الغريب ، المطارد بذنب من لا ذنب له ، الظمآن إلى فئ يرتكن إليه بعد طول انقطاع .. جنة المعاد التي سوف تفتح له أبوابها أخيرًا بعدما قعدت به السبل إلى الهروب من الوجود ..وجوده بالذات ، أو من سلسلة الورطات المتتابعة التي لا تنفك تلاحقني منذ قذف أبي بنطفتي التافهة إلى برزخ الوجود.

"وإذن .. تلك هي النهاية .. لا بأس .."

هكذا كانت خواطري تدمدم متنافرة، حارقة، حتى ظننتها تغلى داخل رأسي الغارق في لجة من عرق غزير رطب، يغشي حواسي بالملح ويمنحها لزوجة كريهة ، وكنت لا أزال أقطع مسيرتي المرهقة من مكان ما ، لا أدرى كيف وصلت إليه ، وحتى باب الفندق المحلى بهواء المكيف البارد ، هرباً من تلك الرطوبة القاتلة التي لم أعرفها قبل اليوم في أي مكان آخر.. وقد كان بيدي ألا أتعرض لمثل هذا الهجير، لو لم أخرج من غرفتي صباح اليوم ، لكنني شئت – كعادتي – ألا يمر عليّ اليوم الأول من أيام غربتي الأخيرة ، دون أن ألقى بنفسي في أقرب أتون عذاب محتمل... وهل يمكن لمثلي أن يحيا دون عذاب أو ألم.!؟

ومن ثم .. فلم يكن أمامي سوى أن أستلقى بعدها مسترخياً فوق الفراش

الناعم ، بعد أن عرجت في طريقي إلى مطعم الفندق ، حيث أثقلت معدتي المسكينة بألوان من طعام الضيافة المجاني..، وأتخمت روحي باجتراح مشاعر القرف من جماعتنا الذين هبطوا فوق الطعام هبوط القادمين من مجاعة ..، ورغم هذا كله فلم تكن نومتي كما تمنيت..، فحتى النوم الذي هو راحة لنا من بعض شر ، لم يعد بالقادر على منحى راحتي تلك..، وكيف لي براحة النوم ..!

□□□

صباح اليوم الثالث فوق أرض الغربة الأخيرة ..

ولا يزال شغلي الشاغل هو محاولة العثور على ذلك الصديق الذي فقدته منذ زمن . فقد لازمتني منذ لحظة هبوط الطائرة أرض المطار صورة كنت قد نسيتها تماماً ، هي صورة قديمة إلى حد ما لكنها لم تلبث أن عادت للحياة هنا والآن...

كان هذا المكان بالذات "المطار" هو خلفية الصورة الثابتة ، حيث جلست ليلة بكاملها ومعي صديقي، المفتقد الآن ، بيننا حاجز حديدي وشرطي بدا متجهماً . كأي شرطي أثناء الدوام الرسمي، ثم حدث تطور صغير نتيجة لمبادرة إنسانية رقيقة من الشرطي ..! فانتقل صديقي عابراً الحاجز المعدني لملاقاتي وجهاً لوجه، هو المقيم ببلاد الغربة منذ زمن قصير، وأنا الموضوع على قائمة العبور الترانزيت – منذ يوم ولادتي.. وقد حدث هذا منذ ثلاثة عشر عاماً قبل هذا اليوم، وكان هو أحد أصدقاء الدراسة الجامعية الخمسة الذين حاولوا طويلاً المجاهدة ضد الفراق بلا فائدة.. فهذا الفراق هو موهبة الزمن المتفردة وموضع سطوته وسلطانه الذي لا يلين فوق كل البشر..، ومن بين الخمسة صار هذا الصديق المختار هو الأقرب إلى قلبي بحكم ميلي الطبيعي إلى تلك النوعية من الناس الذين يقدرون قيمة التفكير ، بل ويحسنون استثمار العقل وتنميته بصورة دائمة..، ثم ازدادت الصلة بيننا اقترابا بزواجنا من أختين، لكن هذا كان هو نفسه السبب في قيام حاجز ما بيننا وفقاً للقاعدة الاجتماعية السائدة القائلة أنه ما من شئ يمكنه أن يفسد من صداقة رجلين سوى المرأة أو المال

صاحبك اللي تحبه لا تعامله ولا تناسبه .

وهكذا ... هنا والآن.. هانحن نتقابل مرة ثانية بعد ثلاثة عشر عاماً، بعد نجاحي في الخروج من زحمة تلك العائلة ، التي جمعتنا ، والتي بدت زحمة لزجة تكاثرت ديدانها حول روحي تنخر فيها نازعة عني غشاء الحساسية الذي كان يفصل ما بيني والآخرين ، فمضيت إلى هنا لا أبتغي شيئاً سوى البحث عن فرصة للإصغاء إلى النفس، وللعودة إلى الذات، لكي أعقد ما بيني وبينهما عهد السلام الأخير، حتى ولو كان الثمن بالمقابل هو عرق ومعاناة عام كامل من الغربة أو أكثر...

ومن ثم فإن بحثي عن صديقي المفتقد لم يكن سوى محاولة للعودة إلى النفس ، فأمام مثل هذا الصديق فقط يصبح من الممكن التعري عن تلك الأقنعة الإجبارية التي ظننت فيها زمناً حائط خلاصي الأخير، بعد أن تراكمت قناعاً فوق قناع، حتى بت لا أعرف نفسي من بينها جميعاً، فما بال بالآخرين من حولي، هل كانوا يعرفونني!؟

❑❑❑

صباح جديد بلا هوية ..

ومازلت على قائمة الانتظار الترانزيت لا شئ لدي ..أنشغل بكتابة رسالة إلى شخص ما ، ولن أرسلها بالطبع ، فما زال أمامي الوقت حتى استجمع شتات القلب والعقل ، بعد تلك المعركة الصاخبة مع المرأة التي شاء القدر أن تكون أماً لأجمل زهرات حياتي .. مريم . وإذن لتكن رسالتي هذه إليها هي بالذات :

الوحدة.. الالتئام ..سلام الروح ..الغوص إلى أعماق الذات .. مراجعة العقل .. الانكفاء فوق جراح القلب المفتوحة دوما .. ثم العمل .. ولاشيء غير العمل .. الكتابة .. إنجاز كل ما هو مؤجل منذ زمن العودة من غربتي قبل الأخيرة ، والسقوط في أوحال الزواج والطلاق وما ورائهما من ضياع لانهائي بلا قرار .. تسديد الحسابات القديمة.. فاتورة المتعة المنقوصة التي لم أحصل عليها يوما .. وانتظار النهاية . ذلك ما سافرت من أجله إلى منفاي الاختياري الجديد ، الذي يبدو أفضل بكثير من السجن الذي سعيت لكي تودعي فيه طموحي ، وكرامة أطفالنا ، مقابل بضعة أوراق حقيرة سطرتها ذات يوم في براءة الذئب الجريح .

أما هذا المنفى الذي سعيتِ لكي أهاجر إليه ، لعلمك كم هـو مربـح لـك أكثر من مجرد الحصول على حكم بحبسي بين اللصوص والمجرمين ، فقـد يعود عليك بما هو أكثر من التشفي ولذة الانتقام ، بالمـال الـذي قـد يـروي ظمئـك المستعر إلى الأشـياء تجمعينـها بـلا حسـاب ، ولا تحسـبين أن في كلمـاتي هـذه أي رغبـة في اللـوم ، فمـا عـاد يجـدي بيننـا ، لكنـها إقـرار بهزيمتي في تلك المعركة ، الـتي أشعلتِ نيرانـها لكـي لا أخـرج مـن أسـر خيالاتك السوداء ، بعيداً عن الرباط الفاشل الموهوم المقطوع بيننا منذ زمن .

فالآن أقول لك خذي كـل شـئ .. وامنحيـني فقـط حريـتي .. كرامـتي لا غير.

❑❑❑

صباح الخير .

قالها شخص ما بلهجة الوطن المعتادة .

" نحن النضارة المقبلة ." قلت هاذيا .

هكذا قيل لنا ، وهكذا أقولها وأكررها اليوم ولكن ليس ضد قـوى القـهر والتسلط الاجتماعي كما كان الأمر في الماضي القريب، فقد ولى إلى غير رجعة زمن البطولات والمعارك والنضالات الكـبرى، بعـد أن سـقطت مدويـة كافـة أنصاب المساواة والتحرر الاجتماعي، بـل والنضـال الوطـني أيضـا ، وعلـى رأسها تمثال لينين الشـهير يشير بإصبعـه نحـو الأمـام ، لا أدري إلى أيـن تحديدا ، لعله كان يقصد الهاوية ..الجحيم .!

ومن ثم أصبح على أن أقولها بوجه الآخر الذي يبتغى تدميري لا لشيء إلا لأنني قد رفضت قناع التابع الـذي أهدانـي إيـاه لأرتديـه لأجلـه، هـذا الآخر الذي يبدو أنه يجد في انتصاره المؤتمل على أمثالي من حديثي العـهد بالحياة ، تعويضاً مناسباً عن هزيمته في معركة إثبات وجوده هو .

صحيح أنه قد لا يكون لدى ما يكفي من أسباب قادرة على منحى طاقة الاستمرار في معركة الحياة، ولكن أحيانا ما تحـدث أشياء صغيرة تلـهمك مثل هذه القوة، ومنها مثلا ما جاءني اليوم عبر الهـاتف الـدولي يـزف إلى نبأ ميلاد ابنة ثالثة لي .. جميلة ، وصحيح أيضا أنه قد تقطعت الأسباب فيما بيني وأمها، لكن هـذا لا ينفـى أنـها ابنـتي علـى عكـس مـا تدعي أمها في قصصها الباردة ، الكاذبة عني ..

جميلة .. أشعر تأثيرها الخاص ، قبل أن أراها ، في كياني الذي يبدو حتى هذه اللحظة فارغاً، مسلوب الطاقة..ولكن .. هل يكفي مثل هذا الحدث الصغير، الرائع ، للتعويض عن ما أصابني ، و آخرين مثلي كثيرين ، نتيجة فقدان الحلم أو المشروع القومي !؟ هل تكفي الابنة الجميلة لجذبي إلى الأرض بدلاً من الوقوف في الهواء بلا قدمين، ولمواجهة الحياة بصدر مكشوف وظهر عار؟!

❑❑❑

القراءة مرة أخرى ..

الغوص في عالم أديب تكاد تحس أنه يكتب بدلا عنك.. متعة كم افتقدتها منذ زمن طويل .. أدركها الآن كاملة مع رواية الربيع والخريف و صاحبها حنا مينه . تلك رواية كان يجب أن أقرأها من قبل ، أو لعلني قرأتها ، لا ..بل عشتها في زمن المنفى الاختياري القريب من البحر ، الذي سكنته في نهاية أيام الغربة قبل الأخيرة. وقد يكون من المقدور أن أعايشها من جديد . لكني أعلم أن اللحظة هذه التي أتمنى الآن ، والتي تستعصي فيها علي القراءة أو الكتابة ،هي بالضبط لحظة السقوط .. إنها اللحظة التي تنفتح فيها أبوابي إلى الخارج ، فيدخلني من يشاء مقتحمًا ، غازيًا بدون أقل مقاومة مني ..مثلما حدث لي من قبل كثيراً .. ومثلما سيحدث أيضاً فى صباح شتائى بارد قريب .

❑❑❑

زمن مستقطع ..

هذا اليوم ليس لي .. أتعرف في ملامحه إلى يوم ماض.. إنه الزمن المراوغ مرة أخرى يلاعبني.. الزمن .. هذا العملاق الفظ ، المنتصر دوماً على كل حجج النفس ، وألاعيب العقل، وتوهمات الروح.. إنه وحده من يقهرنا بزحفه الممض داخلنا، ذلك الزحف الذي نحسبه بطيئاً ثقيلاً أحياناً، أو سريعاً ناعماً أحياناً أخرى .. لكنه في كل الأحوال ينطلق كما هو، غير عابئ بنا مثل سهم أطلق من عقاله منذ بدء الخليقة، يتخطى كل شئ، ماضياً نحو الأبدية في عزم أسطوري لا نقوى نحن البشر الفانين على

إدراكه، وإن أدركنا منه شئ.. فلن يكون سوى إلتماعات نادرة ، هي ما قد يصنع لآينا مجده الشخصي ومآثره الخالدة..

وإذن.. علّى أن أنتظر هنا ، على رصيف النهاية . وحيداً . متوحداً ، ناظراً مشية الزمن فيما يعبرني هو إلى حين وصولي إلى النقطة ذاتها التي فقدت عندها من قبل حريتي بصورة رمزية . وليس عليّ ، في هذا الوقت الضائع ما بين الحياة الموت، سوى معاودة الرقص الغجري ، رقصة الهذيان الدموي ، على حد السيف الممتد فوق فيضان الزمن الآتي .. فترى هل هي لعبة يهواها العقل المغرق في نرجسيته وتشاؤمه؟ أم إنها هي صلاة القلب الدائمة فى محراب الوجود الممتد مثل ورطة مزعجة !؟

عبثاً أسعى إلى التوازن .. عبثاً أتوق إلى الوحدة .. تعاندني أشلاء الماضي المتناثرة في فضاء النهاية.. عبثاً أقاوم زحف الزمن ، الذي هو الأرض والسماء وهو الكلى ، اللانهائي.. فلا شيء غيره يحاصرني، يغتال أنفاسي.

وقد حسبته منذ أيام يتراجع تحت قدمي، فلم أجد سوى زحفه بداخلي يكتسح حدودي..، وإذ بي أنا هو من يتراجع، من يأكل نفسه، من يترنح نحو الموت ..

و لاشيء ..لاشيء يكتمل.

❑❑❑

صباح بارد ما يزال ..

أتيت إليه من النوم البعيد، فتمثلته وقد تجمد الضوء في عروقه، وتمدد أمامى مثل جثة كونية تفوح منها رائحة الليل الراحل..

صحوت فجأة على أنين غربتي تتفتح بين ناظري كزهرة صبار تنفض عن عروقها أوهام شهور مضت كلها بلون واحد .. عندها رأيتني جيداً أمام مرآة الصباح، كياناً غريباً يشتهى القيام.. وكأنني واحد من تلك المومياوات المحنطة عديمة الروح.. فيا للرعب!

"رباه.. أين أنا!؟ وما الذي أتى بي إلى هنا؟ ومتى!؟.."

علا صوت المذياع بجواري، محطماً هشاشة صمتي، وانبرى صوت المذيع يعلن بصوت احتفالي يفتعل البهجة عن مقدم صباح جديد، سعيد..

وتأخذه الحماسة فيلقي إلى بحجر عبارة عن أحجية سخيفة صاغها له ولده عن فيل ونملة.. ولكن إن هي إلا ثوان حتى جرفت صوته إيقاعات حية، نابضة.. أعرفها .. إنها هي إيقاعات البحر.. لا .. بل هي إيقاعات الخليج.

وإذن.. فأنا الآن هنا، بعد سبعة أشهر كاملة منذ لفظتني مدينتي الغارقة بين التراب والدخان والضجيج!؟ واليوم أستفيق، فإذ بي لم أزل في مكاني فى صالة الترانزيت، لم يتنسم صدري بعد هواء الخليج..

❑❑❑

الممثل ..

هو السلعة التى قدمت هنا من أجل العمل على صناعتها .. فمن هو .. !؟ هل أعرفه ..!؟ بل هل يعرف هو نفسه الضائعة بين الشخوص الخيالية ، التي تتراقص على جدران المسرحيات تنتظر من ينفخ فيها الروح !؟

وهل يكون الممثل شيئاً سوى جمجمة فارغة ترتعش .. وكأنها كرة النحاس تمتلئ بالرمل ، فما من موضع آمن تستقر فوقه العين الزائغة .. تنزلق أطرافه المتصلبة تحت الضوء ، تجاهد عبثاً أوهام الثبات . ولا شئ هنا .. لا شئ يقوى على الإمساك بالروح المذعورة .. فالكلمات أحمال جسام ، واللحظة قد اقتربت كي يتقيأ تلك الكلمات .. الجمهور الأبله منفرج الحواس ، خال العقل والوفاض ، ينتظرون زئير الحيوان الحبيس ، أو ضحكة المهرج المبتذل ..!

– لم يعد هناك مكان للتأمل ، فهذا يوم للعمل علي في المستقبل أن أسعى لتنظيم جدول العمل بصورة عادلة حتى لا تكون هناك مثل هذه الفجوات المظلمة من الأيام الثقيلة الفارغة والتي يتوقف فيها الزمن بخطاه الثقيلة فوق صدري، حتى يكاد يزهق أنفاسى . –

الممثلون فوق الطاولة.. ومن خلفهم يبدو الفراغ المسرحي فضاءً مسحوراً فاغراً فاه ليبتلع في جوفه كل من لا يملك كلمة السر "الحضور" .. طاقة الحياة والحيوية التي يموت بدونها أي عمل مسرحي مهما كان عظيماً.

هيا إلى العمل.. أصرخ فيهم .. فما لهم يتثاءبون مثل قطط سمان ، يلوكون الكلمات بين أسنانهم فتتحول إلى مواء يخدش القلب قبل الأذن..يالضيعة اللغة.. إذ لم تعد الكلمات سوى مخاط يتمخطه أولئك الصخابون ذوو القلوب المستعارة، والوجوه المصبوغة بحمرة زائفة.

"على رسلك أستاذي .. فنحن نمثل .. نلعب .. والمهم هو الامتحان.. ثم الورقة ، الشهادة ، ومن بعدها تحسين الوضع الوظيفى .."

قالها أحدهم وضحك نفاقاً، لقد شدد على كلمة الوضع بصورة موحية ، وإذن لم تكن كل هاتك الخطط والمشروعات التدريبية التي حملتها بين حقائبى سوى كلمات.. كلمات.. كلمات .

❑❑❑

- جملة اعتراضية -

لا أدري.. هل أستمر في كتابة هذه اليوميات أم ترى أمتنع عن مواصلة الكشف عن ذاتي أمام جمهور قد لا يعنيه على الإطلاق أن يتابع مخاض كاتب وهذيانه الوجودي - كما نصحني رئيسي المباشر الملتزم بالصدق الموضوعي الزائف ، ميراث سنوات الوهم الستينياتى - !؟

عموماً .. علي أن أكمل ما بدأت ما دمت قد قررت أخيراً نشر ما كنت أحتفظ به مطوياً من كتابة شعرية أو نثرية، عملاً بنصيحة الشاعرة "سعدية مفرح" وليكن..

❑❑❑

ذاكرة الوطن ..

اليوم أصابتني رعشة وجدانية افتقدتها منذ سنوات وذلك عندما شاهدت الفيلم التلفزيوني " الطريق إلى إيلات" الذي كشف أمام عين البصيرة جزءاً من ذلك الشيء الذي أظنه جوهر ما أعانيه من شعور قاتل بالعبث واللامعنى، وقد كنت أحسبه محض قلق وجودي من ذلك النوع الذي تختص به لنفسها الذوات المتهوسة بالإبداع الشعري ، رغم ما قد يصيبها من حساسية مفرطة تجاه العالم تجعلها جاهزة باستمرار للغوص في دوامات اكتئابية عميقة السواد في مواجهة الضغوط الخارجية ، التي قد لا

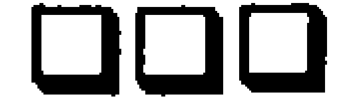
تتعدى أحياناً مجرد نظرة شك ، أو عداوة غير مبررة ، أو حتى مجرد وهم العداوة ذاته .

وهذا الشيء هو نفسه ما رصدته من قبل بوصفه فقدان الحلم القومي الذى عاشته ثلاثة أجيال متعاقبة من الشباب العربى، ومن بينها جيلى أنا المولود عام العدوان الثلاثي ، وتأميم قناة السويس.. أنه هو - أيضاً - الوقوف في الهواء بلا أرض تمنح الأمان والاستقرار .. وهو - ثالثاً - مواجهة ..!!الواقع مسلحاً بلا شئ

□□□

مساء صاخب ..

مساء الخميس ، حيث تعودت أن أهرع إليه طلباً للصدق بين جماعة البشر الحقيقيين الذين يعيشون الحياة بالفعل ، والذين يختلفون عنا نحن معشر المثقفين أدعياء الحياة الموجودين خارجها ، فنحن لا نعيشها وإنما نكتبها أو نمثلها أو نقرأ عنها. كان النمط الأغرب بينهم واحداً من بقايا أيام النضال اليساري المشتعل في سنوات السبعينات قبيل أن تنهار أوثان الأممية بين أقدامنا المكبلة بأغلال الوهم الأحمر..، أذكر ليلة ذهبنا لزيارته حيث يسكن في ملحق صغير، ضيق كبيت من بيوت النمل الأصفر..، شعرت يومها أنني لا أعبر بقدمي فقط عتبة المكان بل الزمن أيضا، إلى الوراء بأكثر من عشرين عاماً ، كان كل شئ كما هو عليه أيامها..، قصائد نجم وجاهين وأغاني الشيخ إمام وملصقات النضال الساخنة التي تذكر المرء بكل هاتك القضايا التي سحقتها عجلات النظام العالمي الجديد...هو الليلة مختلف، فهو ينتظر قدوم زوجته، ومن ثم فقد أعاد الحياة إلى غرفته ، بأن نزع عنها كل ما كان يفصل بينه والواقع الحي المعاش، ومن ثم فهو الآن مستعد للشفاء..، فما زالت حواء تلعب الدور نفسه مع آدم الأبدي ..



صباح الجمعة الأخيرة ..

من أيام الغياب ، سمعت صوت الإله بقلبي يدعونـي إلى سـاحة التوبـة القائمة خلف بوابة الغفران الكبير..كم مرة سمعت هذا الآذان، لكنـه اليـوم يحمل طعماً خاصاً أنه يناديني أنـا.. أنـا الهـارب مـن تيـه إلى آخـر، أنـا الغريب بين المدن، حفيد ذلك الجيل الأخير من الشعب المسافر بين البـلاد والأزمنة.. وهاهو اللسان يلهج بالدعاء، وقد شفى فجـأة مـن شـر الوقـوع في أحابيل اللغة، ومن حسرة تهالك الكلمات المتكسرة على حافة الشـفاه ، أو تلك الأخرى الذائبة في لجة الحلق.. وهـاهو القلـب يـرى النـور، فلـم يعـد يخشى الضياع في تيه المشاعر، أو اختلاط المعاني وانتعاشها خلف الضلوع، ثم انزواءها في عتمه العقل المضروب بالفلسفة..

□□□

عودة أولى ..

هبطت إلى القاهرة فوق سحابة موت حاولت أن أتبين لقدمـي موضعـاً بـين حقـول المقـابر المتراميـة علـى جـانبي الطريـق الصـاعد إلى كـهف العائلة..ولكن..

يذكرني صوت أمي الآن أنني قد وصلت منذ يومين ونصف..هكذا كـان علـى أن أخـرج لمواجهـة تلـك الفكـرة الخبيثـة " أنـا الآن هنـا " في الوطن ، ولكي أفتش على الفور عن حفنة الأصدقاء المتناثرين مثل نقاط باهتة في محيط الأعداء.

"هذا زمن للموت.." قالها قبل أن يغرق في كأسه ومقعـده معـاً ، وكأنـه لم يقل شيئاً.. بالأمس قرر عاطف الطيـب أن يمـوت مبتسماً .. وإذن فها هي النبوءة الغامضة تفعـل فعلـها بيننـا.. علـى الطاولـة جلـس كـورس الحـزن المخمـور..، ممثـل وشـاعر وكـاتب سـينمائي وصحـافي و..أنـا..، الصاحي الغبي الوحيد ، .. يمسك الممثل ــ أحمـد زكـى ــ بدفـة الحـوار العبثي المـر..، ولا بـأس.. فقـد حلـت المـرارة بيننـا منـذ زمـن.. هـي الآن تنادمنا..، تحتسى كؤوس دمنا المراق هدراً.. كان الشاعر إبراهيم داود قد سبقنا إلى التحليق على بساط الخمر السحري.. ثم تبعه الآخرون.. فهل كان إلا أن نتلاقى .. نتباكى.. نحتسي ماء الندم.؟ نـزع أحمـد زكـى عنـه

سترة النجومية المرصعة، وراح يعزف على أوتار قلبه المشدودة "الآن" بين عظامنا ، لحن اللا جدوى وفقدان المعنى . وينثر النغمات الرمادية في فضاء الجريون الملوث بالكثير من أصوات الادعاء المنكرة.. أفسحنا لنغماته تلك ملء صدورنا..ولم لا.. فقد كان عاطف الطيب فناناً من النوع النادر المخلوق خصيصاً على الطريقة المصرية القديمة.. أي من نسيج مخصوص ، ضد الموت.. نسيج الخلود .

❑❑❑

**صباح غريق**

بين ظلمة وضباب.. طالعت مرآة الأمس المغبرة برماد الحلم القديم .. فلم أجد سواى :

جثة ممزقة

فوق ساقية الحياة

كلما دارت بها عجلات النهار فى مياه التطهر

لم تلبث إلا وتعود بها أنياب الليل الملوث

وفى الخارج..كان الشارع لا يزال يتخبط كالمخمور بين بقايا البشر.. زحام.. ضجيج .. فوضى بابلية عمياء..دسست قلبي في جيب سترتي، وشددت حملي الصغير على كتفي، ومضيت في ثقة اخترق جنازتي الصاعدة إلى الجبل، كأي مسيح مزيف أوقعه سوء الطالع في ورطة الوجود .

" آها .. هاهو صديقنا العائد من الخليج

وإذن .. فاليوم خمر .. ويا أهلاً بالدنانير "

صاح الصديق ، المخرج الناقد المسربل بسواد الموهبة العقيمة ، فاتحاً ذراعيه لالتقاطي، خلف قناع البشاشة اللزج، عدلت مسار خطوتي وتركته يعانق اللا شئ .. ومضيت .. لا ألوى على شئ.. ولا أبتغى شيئا .. علني أجد عزائي فيما قد تلقيه إلى الصدفة الحمقاء.. عبرت بين قدمي فتاة .. طفلة لا تكاد تظهر خلف أسمالها المهترئة.. استحلفتني أن أبتاع منها المناديل.. ولم أدر إلا ودموعي تسبقني إلى صورتها ..صورة مريم.. ابنتي .. وتلاحقت الصور نغم .. جميلة .. أين هن الآن!؟..أهي الصدفة التي

ساقتني إليهن.. انتقل كضيف ثقيل من بيت أم مريم إلى بيت أم جميلة.. أتسول رؤية أطفالي محملاً بالهدايا الباردة!؟ أم هو هذا الذي جنته يداي.. ولم يجن به على أحد!؟

من أنت .؟

هل جئت الليلة كي أراك تطل نحوي من بين مكعبات الثلج العطشى للخمر ، يخترق رأسي لسان الطبقة والوطن الممتد من الطاولة المجاورة ..؟ يا للوطن .. فما هؤلاء الناطقين باسمه سوى مندوبين مقنعين لتجار الكتب .. يروجون العناوين البراقة ، ويستعرضون فهارس مزينة ، فيما هم موقنون بأنهم ، والسامعين ، مازالوا غارقين في وحل الأمية .! هل جئت الليلة من أجلك ..من يدري .؟ فها نحن غريبان يعبران خواء الروح نحو سماء الألفة المستحيلة اليوم .!؟

❑❑❑

يوم خاص جداً ..

أعمل فيه على مراجعة البروفة الأولى من ديواني الأول،مختارات أو مقاطع من ديوان الغجري .. يالفرحتي.. أكاد أموت بها فها هو أخيراً بين يدي أو يكاد ولكن عليّ أن أهديه إلى كل من ساهم في نشر نصوصي الضائعة بين ضجيج الاهتمامات المبعثرة!

❑❑❑

إلى وطن الغربة من جديد ..

الآن.. وقد عدت .. يبدو أنه لزاماً على أن أغوص في جدية التأمل.. لا لمجرد متعة التأمل التي لم أنجح أبداً في الحصول عليها ، ولكن لضرورة المراجعة قبيل فض الاشتباك بين كل هذه الشخوص والموضوعات المتداخلة حولي.. أنا الواقع في حبال الماضي كالفريسة بين خيوط شبكة الصياد لا تفكر سوى في النجاة بصرف النظر عن الأسباب التي دفعت بها إلى تلك الواقعة.. فالنجاة.. النجاة. ولا يهم إن كنت بالفعل ضحية لعبة قدرية عمياء ، أم كنت "عصفور غبي اختار حائط إعدامه الأخير.." كما يقول محمود درويش .

❑❑❑

**مساء حامض..**

يتمدد منذ صباح الأمس على إفريز النافذة ..عبرته ممنوعاً عن النوم . مشوش الصحو، مهتز الخطى بين عشرات النشيطين من أبناء جلدتي - والجلود الأخرى - مبكراً عن موعد الدوام.. وإذن لامانع من الارتكان إلى صدر البحر قليلاً ، ولاستمتع بالتهام شئ ما بطعم الذكريات الحار.
ترى هل صحيح ما يفعله أبناء الجاليات الأجنبية عندما ينقلون معهم إلى بلاد الغربة عاداتهم وطرائق معيشتهم، أم أنها ليست سوى محاولة ساذجة لنفي المنفى، لا تثمر عملياً سوى صورة حياة مشوهة منقوصة فيها من كل شئ لمحة.

آه .. الوقت يمر دون رحمة..على أن أعجل الخطو الآن. فالأولاد ينتظرون مثل جمهور متخم يستعد لمشاهدة فيلماً أجنبياً غير مترجم ، انه هو ذاته الحوار من طرف واحد.. فلا أحد يريد أن يستمع، كل يمضي سادراً يلوك منولوجه .. أو كما قال أجدادنا كلُ يبكي ليلاه..، أنا أبكي المسرح.. نظريات التمثيل والإخراج.. وهم يبكون الامتحان.

□□□

**مساء ثقيل..**

يترنح مخموراً - لا يزال - بين الأرجاء الأربعة..صحوت من ليلة الأمس دون ملاقاة الصباح الأول من العام الجديد . فهذا عام آخر قد انقضى..آخ.. لابد من عودة.. فكلما تبدلت بي الأماكن على خارطة الوطن الأكبر ، تخلخلت قناعتي الأولية شيئاً فشيئاً، وعلى رأسها تلك القناعة المراوغة بما هو قومي في مواجهة النظرة المحلية ضيقة الأفق..فلم أكن لأحلم يوماً بأن تكون جنسيتي . التي تتمتع بذلك الصدى الرومانسي الضارب في أعماق التاريخ ، سبة ينعتني بها الناس في الطريق ، أو ينكرها عليٍ آخرون على سبيل المديح .. " لا أنت لا يمكن أن تكون مصرياً. ".!

وإذن .. كان من الأفضل ألا أترك قوقعتي، قوقعة الذات الأصلية الأولى، لكي أحتفظ ببكارة عروبتي. ولكن. لا بأس. فالتاريخ لا تصنعه

تلك الحوادث الفردية التى تخدش رومانسية الفنان الهش.

ولا يزال النهار لزجاً يلفني في كومة الوحدة والنوم والكسل.. انتزع جثتي مرغماً لأضعها في دولاب العمل اليومي.. مازالت الإجازة القصيرة تلقي بظلالها على الجميع ، فالأولاد يعانون صداع رأس السنة، وقد تغيب معظمهم عن المداومة.. لا بأس..

هو النوم مرة أخرى.. هو النوم راحة من بعض الشر..وإلا فمن ذا يقبل بنيران اللعنة، وسياط الإهانة تحاصره من كل صوب !؟

ولا يزال للمطر عودة

فمتى يا ترى تحين عودتي إلى نفسي ؟ يزداد حدة شعوري الرومانسي المفعم بالشجن الشتائي .. تعاودني هلوسات فكرة القومية كنت دوما مؤمنا بأننا وحدنا رغما عن السياسيين قد استطعنا تحقيق هذه الفكرة وذلك باستعمال أجمل الاختراعات البشرية وأحلاها.. بالفن والأدب، فالفنان الحقيقي هو أبعد الناس عن مشاعر العنصرية.. ولكن يبدو أن الطابع التجاري ، المادي ، الذي طبع الفن بطابعه خلال العقد الأخير، قد ساعد على الحط من القيمة الإنسانية العليا للفنان.

أستعيد كلمات الرسام الروسي المبدع كاندنسكى – حين يقول: " إن النتيجة الطبيعية للفن – التجاري – غير الهادف هي الشللية والمؤامرات والتباغض والتحزب والمشايعة "

ولا يزال المطر مستمراً .. تزداد كآبة هواجس القومية، تدفعني إلى التراجع عن مواصلة السير إلى الجريدة..، أستعيد صورة وكلمات عدد من المثقفين حول ما أكتب.. أقول لنفسي: لا بأس.. فالآخرون ليسوا سوى تجار ذوى رائحة خاصة !

❑❑❑

**فلما جاء نهار سابع ..**

بعد أيام اللا فعل الخالية ، قلت فلأفعل شيئاً يروق في أعين الأولاد. هكذا شرعت في العمل على ضوء شحيح من لهيب العقل الذاوي، وقررت تجميع مادة بحث مؤجل حول "جمالية المثل". وبالفعل دارت العجلة رغم وعورة الطريق المغطى بأوحال الذات الغارقة في وحل الماضي المنهمر .

وضباب الحاضر المختنق بغيمة من وراء غيمة، وظلمة من بعد ظلمة..ولكن.. لا شئ يكتمل !!

فهاأنذا ، في مكاني .. أسير بالبطء اللازم..أحصد اللا شئ الممتد ما بين النهر القديم وصحراء الغد ، تتمايل بين عيني صورة الحاضر الماضي إلى مستقبل مبهم .. ينفك العقل من عقاله، يجوس بين الأمكنة، ينقب عن مستقر أخير. تحاصرني برودة هذا المكان ، إذ كيف يمكن أن يصبح المكان لا مبالياً ؟ مكان للفن وللعلم.. لماذا يتخذ هذه الهيئة. هيئة اللامكان؟ وبالطبع فإن المكان غير مذنب، إنه الإنسان المتورط - في سلسلة من المداخلات مع أشياء لا يفهمها بحكم وظيفته فقط لا غير وينغلق المكان . ولا تيئس فغداً تعود إلي أمكنة تعرفها وتعرفك غداً تعود إلى أزمنة تملؤها وتملؤك..أنت الآن لاشيء. وغداً تكون كل شئ

فالموت. كل الموت .. للغرباء.! الذين يشربون القهوة . والذين لا يشربون .! هكذا تصرخ بوجوهنا كل صباح بقاع الأرض كلها . فلم يعد لنا موضع بين المطارات والموانئ التي لم نشبع كتابه قصائدنا لأجلها. وعلى أرصفتها..إنها نقيصة أخرى تضاف إلى أيامنا، أيام الغربة الأخيرة التي نحياها مرغمين ، نحن الصعاليك، الشطار ، الخارجين ، عن القبيلة ، الهائمين في بلاد الناس.. نقيصة التعصب.. العنصرية. تطالعني بها نشرة الأنباء تحصى أعداد القتلى والجرحى.. وضحايا المقابر الجماعية والتطهير العرقي.. فيما تواصل الطبيعة أعمالها الانتقامية ضدنا وكأنها تسعى هي أيضاً إلى الاستقلال مثل الشيشان ، أو التاميل، ولكن أنى للطبيعة أن تصل إلى مستوى بشاعة وقسوة الإنسان الذي قد يقتل ولو بكلمة أو نظرة

❑❑❑

القناع ..

وجهنا الخارجي، صورتنا المركبة ، التي نرفعها بوجه الآخر مقابل قناعه هو، إنه طريقة حياة كاملة نعيشها، نحن الواقفين، على الخيط الرفيع المشدود ما بين الأمس والغد، السائرين داخل نفق الوحدة المظلم نخاف لو ينهار فوقنا فجأة ركام التداخل الحضاري الذي يمزق أرواحنا. نسير تحوطنا يد الرعاية القسرية بمدها أصحاب الفضيلتين - السياسه

الأخلاق – يصدون عنا أذى حريتنا! هكذا تعودنا جميعاً ارتداء القناع نحقق به وجودنا المضطرب.. والقناع ليس واحداً، بل هو أقنعة متعددة.. قناع للحب ، آخر للزواج . وثالث للممارسة العملية ورابع للعلاقات والمجالات الاجتماعية . وخامس للشهرة وسادس لتحصيل القوت..الخ وبين هذا وذاك تتبدل الأقنعة فأصدقاء الأمس هم أعداء اليوم . وسادة اليوم هم خدم الغد .. وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.. فالوجوه متغيرة إلا القناع فهو وحده الحقيقة الدائمة.

❑❑❑

صباح مقطوع الأوصال ..

ألملمه أنا الممزق أشلاءً بين القرى وبين الأصدقاء.. آه يا للكلمة " الأصدقاء " وما تبعث من رجفة تكاد تبين للرائي، بل وما تسوقه إلى حافة العينين من حبيبات الدمع الحارقة تخز الوجدان وخزاً.. فهل من صديق؟! كان لي يوم صديق هاهنا، وكان هناك واحد أيضا ، خرج من الفؤاد ولم يعد والآن.. وفي هذا الصباح المقطوع الأوصال بالذات، أعود إلي قائمة حساب الأصدقاء فلا أجد سوى رصيد مهمش، وفي غرفة الذكريات أعثر على مقبرة جماعية تجمعت فيها رفات أصدقاء كثيرين تنتظر محرقة النسيان ، كلهم قد انتهوا قتلاً أو اغتيالاً من حياتي ، أفتش بين ركام الأحداث والوقائع فأكتشف الفاعلين هما هما.. المال و النساء.

فكرت ملياً في العودة إلي الوطن نقطة للارتكاز تمهيداً للانتقال إلى دارٍ الغربة التالية، حزمت أسبابي ورحت أفحصها فوق الطاولة ، لم أجد شيئاً محدداً أو نهائياً ، ولكنني أري بعين الحدس أن هذا المكان ليس لي العيش فيه، وكيف للعصفور البرجوازي الصغير أن يقتات طعامه القليل بين خراطيم آكلي النمل التي تدربت جيداً علي مهارة الامتصاص ، امتصاص المال ، والمكانة ، والامتيازات ، بل وحتى البشر.

الشمس تنتهك النافذة.. فيثب الصحو فوق عنق الحلم وثبة غادرة ، يرديه صريع الصباح..ما للرأس اليوم مثل كرة النحاس تملؤها الرمال ، تهتز فتتساقط نخالة الأفكار الحمقى..!؟ ولا بأس ..!

فلأرتدي اليوم قناع البلاهة !. يتهالك الوقت المسكين إعياءً أمام صندوق الدنيا الجديدة التلفزيون – ، يدوس إصبع النعرة القومية رقم

القناة الفضائية المصرية، وأجلس فاغر الفم كأي أبله أصيل أتابع فذلكات وغنج النسوة المذيعات ، وركاكة وضحالة البرامج والضيوف . أستشعر الضالة والضيق فأفيق إلى قناعي أمزقه بيدي، ولا أملك سوى أن أكتب إليهم ،راجياً ، شكواي الموجعة :

" بني وطني.. كيف وصل بنا الأمر إلي نقطة الغرق لهي بحر التفاهة والضحالة؟ من دفع بكم خارج حدود الذوق الذي أبي صاحبه قديماً الخروج فمات به علي حدود المحروسة وشيدوا له قبراً أو ضريحاً هناك تحت ـ باب الفتوح ـ ليقولوا بعدها: إن" الذوق لم يخرج من مصر.." !؟ أهي سنوات الانفتاح والردة التي طال بها وبنا الأمد؟ وهل من عودة إلي الذات الأصلية الأولى؟

□□□

عرس الدم ..

" هذا هو العرس الذى لا ينتهى ..

في ليلة لا تنتهي . .. في ساحة لا تنتهي .. "

يا إلهي.. ما لهؤلاء القوم لا يصدقون حتى تأتيهم البينة عبر الـ CNN !؟ فقد قال الشاعر.. النذير.. الرائي.. عن بؤس المهرولين.. فانزعج الواهمون.. وظلوا يرجمونه بالكلمات.. حتى تولى عنه القصف الكلام .. وكأنما كان هو " زرقاء اليمامة ".. والقوم على رؤوسهم الطير لا يعقلون ! والآن هل تصدقون صور الـ CNN.. تعرض بقايا أطفال قانا أم مازلتم في الوهم غارقين!؟ قد انفرطت عناقيد الغاضبين موتاً ودماراً لا يرحم ولا يلين..فهل مازلتم على عهد – السلام – !؟ أم تنتظرون دوركم، سكارى الوهم..غير مبالين!؟

"جنوباً تقدم .. جنوباً قاوم.." هكذا كانت تقول الأغنيات في زمن النضال القديم.. وأنت.. هل تقوى اليوم على الكلام!؟ بل هل تقوي حتى علي مجرد النظر إلي ما تبثه الأخبار!؟ لا.. لا تبتئس.. فمازال اليوم خمر ونساء وثقافة عالة..ومازال لك أن تشرب حليب الجسد الظامئ ، وتنام تحت فراش الثمالة، تفتش عن كلمة مدورة تكتبها فوق السطر أو الصدر الحنون..، تنتظر لو يبين الخيط الأبيض من الأسود ، تطارد وهم الذات الهاربة من جحيم الآخرين..ولا بأس.. فإن الغد لناظره يبين.

وفي هذا الصباح القابض ، لاذع اللحظات ، الذي يسيل مرارة فوق النافذة المغبشة برماد الفجر..أفتش عن صوت أمي، فلا أجد سوى رنين الأسلاك الباردة.! لا أدري لماذا أراها بين نسوة الجنوب النازحات شمالاً بعيداً عن "جنون البشر"..، وأراني ملوحاً لها بعلامة النصر بين كومة عظام لفظتها إحدى المقابر الجماعية هنا أو هناك. لم تعد العين ترى من حولها سوى صور القتل المتلاحقة .

حقاً .. لقد أفسد هذا العصر عمل الشعراء التراجيديين.. ولم يعد ثمة من مكان سوى للهزل المرير ..، ففيما إذن يتهمني البعض بالتشاؤم..، لأني اشتهيت الموت ، وأدركت طعم النهاية!؟ وهاهو ذا الموت المجاني من حولنا يعلن قدوم النهاية.. فما أنا ، إذن ، سوى كاتب واقعي ، واقعية النظام العالمي الجديد.

❑❑❑

**يوم جديد للعمل..**

أنجزت اليوم وضع التشكيل الحركي لكلمات كاتب لم أكن أعرفه من قبل واكتشفته هنا، هو عبد الرحمن المناعي ،، اسم يجب أن يضاف إلى قائمة الأسماء القليلة التي كتبت مسرحاً بالعربية، أقول اكتشفته غير مبال بهزة أكتاف ذوي الياقات العالية الذين يعرفون الأسماء كلها ولا يفقهون معناها.

يا فاتح الآفاق ومحرر الخيال.. تباركت وتبارك من أنعمت عليه.. هاأنذا انتهي من تصميم مسرحية أخرى لكاتب آخر عشق البحر فصنع منه عالماً خاصاً تسكنه شخصياته التي تتآكل نفوسها بفعل الضياع فلا يكون لهم سوي الحلم ملجأ أخيراً.. إنه اونيل ساحر التعبيرية وقرصانها المغامر..

❑❑❑

**فى أيام الغربة..**

وكما في أيام الخدمة العسكرية، كما في القطار.. تقابل أناساً كثيرين ، تتعارف ، تثرثر وإياهم حول طاولة الوقت الفارغة ، تصطادون أشباح الوحدة والضجر.. وهكذا تفعل العادة فعلها الطبيعي ، أي صناعة الوهم،

وهم الصداقة أو الحب.. ولكن.. ما أن يتوقف قطار الغربة ، وينزل كل إلى منزله.. حتى تنجلي الحقيقة ، ويطوي النسيان الأسماء والصور ، إلا ندرة ممن كانوا ولابد ستقابله هنا أو هناك ، الآن أو غداً .

إذن.. لا بأس إن سقط منهم اليوم واحدٍ، أو غابتٍ واحـدة ، فمـاهم إلا سحابات ظنون لابد أن تزول ، إن عاجلاً ، أو آجلا.

□□□

يوم خاص ..

وأخيراً فعلتــها.. وهـاهو بـين يـدي ، يـوم خـاص لي أنـا وحـدي..! ، أغلقت جميع منافذ الاتصالٍ بعد إزعاج نسائي ، صبـاحي مبكـر .. قـررت الارتحال إليٍ الداخل.. عميقاً.. أكثر فـأكثر .. لا أحـد هنـا يعرفـني ، وإن كانوا جميعـاً يـهتفون بـاسمي مصحوبا ببضعـة ألقـاب مختـارة للتميـز ، ولإعطائي وهم المكانة العالية..لا أحد هنا يعرفني، ولا يريـد.. علـى الرغـم من قصائد العشق التي يرتجلها البعض في مديح شخصي المتفرد! !..

لا أحد هنا يعرفني، ولذا اقف مذهولاً أمام فيض الكراهية الذي يرسله إلى آخرون بلا حساب وبـلا سـبب افهمـه! أنـا وحـدى..أحـاول امتـلاك يومي .. بلا مجاملات ، أو عشـق . أو كراهيـة.. وحـدي فـوق المقصلـةٍ.. أتـأملٍ حـاضر الأربعـين القاضيـة، ولكنـها غـير مسـنونة جيـداً.. بطيئـاً.. بطيئاً.. يتقدم إلي عبر المرآة موت آخر بليد عله يكون هو الأخير .

□□□

صباح مشوش ..

تختلط فيه أسبابي وعلاتي الواهية التي جمعتها لتـبرير هـذا الهـروب الأخير من مواجهة الحياة في الوطن ، ولكنني اليوم قررت أمراً .. أجل فما علـي الآن سوي أن أجمـع "وبالمقـابل" بقايـا شـجاعتي والكبريـاء لأرحـل بعيداً.. بعيداً إلي الوطن.. لملمت أوراقي الحائرة وجلسـت أصيـغ اسـتقالتي طوقاً للنجاة من هذه الحرب المهلكة، عديمة المعني ، التي دخلتـها مرغمـا أحارب غير معركتي ، من أجل تسديد حفنة ديون نسوية ، ستدمر البقيـة الباقية من عمرى..

أحـاول إقنـاع نفسـي المتشككة دومـاً، أن مـا أفعلـه اليـوم هـو الشـيء الصحيح ولو كان ضد كل حسابات العقل.. ولكن هيهات..فـها هـي تعـود

بي مستسلمة، خائرة إلي ذات الدائرة ، لأغني من جديد موال الغربة المر ، بعدما مزقت ورقة الاستقالة . !

❑❑❑

**يوم منكود..**

من أيام متشابهاتٍ عنود، تخوض فيه قدماي وكأنني مقاتل منسي ، تركته الحرب ضائعاً بين غابة صبار قاحلة ، لا يفعل سوى أن يعيد ترديد أفعال القتال ، دون ما قتال . فهو لا يدري أن الحرب قد انتهت ، وأن الحلم قد انكسر ، ورحلت كتائب النضال إلى ما وراء الخيال..

آخ يا "كيخوته" العظيم ، أيها المهرج الأوحد بين الوجوه الكابية والأيادي الدامية ، تدور بك طواحين الهواء ، وتسقط بك قدماك في كومة قش ويحاصرك جيش الحملان المسكينة ، يصم أذنيك ثغاؤها ولا تريد أن تصدق أو تفيق!.. هل كان سرفانتس - يكتب آنذاك عن زمنه فقط، أم انه كان يصنع نموذجاً لكل لحظة تحول يسقط عندها زمن جريح مدمى، وينهض آخر عملاقاً فظاً مثل مارد يحطم سجنه!؟

❑❑❑

**مساء لاهث..**

أعدو إليه منذ الصباح ولا الحق به..، أنتظر وصول الطائرة، أم أنتظر فقط مجرد فرصة للذهاب إلى المطار واللعب كالأطفال بين الممرات أتفحص المغادرين والقادمين.. أرتدى ثيابى الجديدة على عجل قبل الموعد بساعات ، تماماً مثلما كنت أفعل قديماً حين كنت أصر على أن أنام بكامل ثياب العيد فى انتظار الصباح .

أشتري باقة زهر وبعض الحلوى ، وأنفض عن لعبة صغيرة بصمات الأبوة المزيفة ، لأقف أمام المرآة أتأمل صورتي المفقودة ، صورة الأب.. وفي المطار تتضافر أكثر من نخوة بدوية لتمنحني حق الدخول ، واستقبالها بصورة لائقة. والآن.. ها هي.. في ثياب العرس البيضاء قادمة من عمق الطائرة ، تبرق عيناها ذات البريق ، بريق عيني ، وتبسم شفتاها ذات الابتسامة، ابتسامة أمها.. فيالفرحتي بها.. عروسي ذات السنين الإحدى عشرة .

❑❑❑

ومازال علي أن أصحو مبكراً ..لأتخذ مكاني بين طابور المنفيين في معسكر العمل أباشر المراقبة في الحدي النقاط الحصينة بين فتيان يعلم الله وحده لماذا هم هنا الآن ، وإلي أين سيمضون. وللسنة الثالثة علي التوالي أشهد هذه المعركة السنوية.. الامتحانات.. وفي كل مرة أزداد يقيناً أن الغش ليس سلوكاً أصيلاً لدي الطالب ، ولكنه ثمرة طبيعية لنظام التلقين ، هذا الذي يضعنا لا يزال في ذيل قائمة المجتمعات المدنية ، حين نصر على مبدأ الوصاية الأبوي علي عقول الأصغر سناً، ولا نفتح لهم فضاء العقل ، بل على العكس ندمر أمامهم جسور الثقة بالنفس ، ونمنع عنهم ذلك الحق العظيم الذى ما كان للبشرية ان تتقدم من دونه.. حق الخطأ.

أعود من معمعة الامتحانات.. أجرجر الجسد المتهالك ، وأعتصر خرقة الروح المزقة فتنز مرارة مالحة ، أحاول ضبط موجات العقل المشوش بإشارات التآمر التافه الذي يبثه الجميع لحناً مميزاً لتلك الغربة النشازّ ، ولا أفلح في اصطياد عصفور القيلولة المضطرب.. فأدور نصف يقظ بنصف رغبة ، أفتش عن شئ ما يعزيني ، ولا أجد غير صور الأولاد ـ طلابي تتراكض علي جدران الذاكرة الملطخة ببقع الكآبة ، أراهم وقد تشوهت نفوس بعضهم بفعل فاعل يبدو أنه قد اتخذ لنفسه شعار التجهيل وسيلة للبقاء. لبقائه هو ورحيل كل ذي معرفة.. ومن ثم فقد دفع البعض من هؤلاء الصغار إلى لعب أحقر الأدوار الإنسانية قاطبة ، دور الجاسوس ، الطابور الخامس.. خوفا من الرسوب، وطمعاً فى النجاح..

وهكذا.. تخفت أضواء العام الدراسي تدريجياً حتي تتلاشى إلى فضاءٍ الإجازة ضوضاء الجهد الذبيح بين القاعات والفصول.. آخ.. كم كان ثقيلاً هذا العام بما حفل من صراعات ومؤامرات تحتية ، خافية ، وأخرى فوقية، ظاهرة.. أما الضحية فهو دائماً واحد ، انه الشباب المسكين الذي تدفعه غريزة النجاح إلي الدخول في اللعبة وقوداً لها. وهكذا تنهار ببساطة أولى مبادئ التربية الصحيحة.. تربية روح الاستقلال والشخصية الحرة التى لا يمكن لفنان النجاح دونها.

ومع نزول سحابة الصمت والظلام فوق ساحة العام لا يبقى من أثر سوى أنفاس لاهثة ، وأنظار معلقة تنتظر عاماً جديداً يضاف إلى الحساب ، ومن ثم تستمر اللعبة المرتجلة.. لعبة العصا والجزرة.. والتي يسقط فيها ضعاف النفوس الذين قد يبيعون أي شئ مقابل المال ، حتى لو

كان هو الكرامة..ترى كيف كان ذلك المعلم الذى قال فيه حافظ إبراهيم البيت المأثور:" قم للمعلم وفه التبجيلا .. كاد المعلم أن يكون رسولا ".!

□□□

الحب..

هذا الذي يرونه نقيصتي ونقطة ضعفي وحجة لقتلي أو رجمي وإهدار دمي ومالي وكل مالي ، أظنه هو مبعث غربتي – أو غربتنا جميعا – حال غيابه أو إنكاره أو تجريمه.. فما بالك لو كان هو حب عاهرة صغيرة .! ، ولو كانت نتيجته التخلي عن قناع الأستاذية المزيف .!؟

فبعدما تم استلاب نصف عمري علي مقاعد الذنب والتأنيب في المدرسة والبيت والجامعة، قررت تغيير مسار حياتي ، وتعلمت الفن والجمال عشقاً لا أحيد عنه ، وبالفعل حفرت بيدي هاتين طريقاً ، ولقباً أحمله على ظهري مرغماً بعد أن عدت العب أنا الدور الكريه ذاته.. دور المعلم في مناخ لا يعترف سوى بعصا الترهيب وسيلة إيضاح ..

ولكن.. وحتى أجد لنفسي نقطة توازن ، اخترت لنفسي طريقة في التعليم بالحب.. فأصبح من بيني وبينهم عداوة السلطة أخوة وأصدقاء حميمين، تمتد لهم يدي بالمساعدة بدلاً من العقاب ويهمس لهم قلبي ولساني بالمعرفة بدلاً من الترهيب والتخويف..فما الذي حصلت عليه من مقابل ؟!.. لا شئ سوى سوء السمعة وضيق الغربة أكثر فأكثر..في حين تهتز القلوب والعيون خشية ورجاء لذاك المدرس ، الطاووس ، الذي يختال بينهم رافعا عصا الإصلاح.!

وإذن..لابد من القناع – مجدداً – .. لابد من الجدار ما بيني والآخر..مادام النكران والاستلاب هما جماع ما حصلت عليه مقابل الحب! وهكذا يجب أن يكون القناع السلبي هو شعار المرحلة المقبلة المتبقية من حياتي الآفلة ، حيث آن آوان الاعتزال ، والعيش وراء الحاجز العالي ، حاجز الظلال الكثيفة . فهذا وحده هو الفعل القادر على إبعاد كل من فتحت لهم قبلاً حدود كياني ، وهو وحده – فيما يبدو – القادر على منحي هدأة الروح .

□□□

**اليوم الرابع من أيام الأبوة المتأخرة..**

تنقشع سحب الرومانتيكية خلف حدود الواقع الحي، وأراني أمام طفلتي ذكراً غراً لا يفهم من أمور الخلية شيئا، وإذن فقد صح الوصف " ذكر النحل" من تقوم عنه الإناث ، الشغالات ، بمهام الحياة اليومية، فيما لا يمتاز إلا فى التلقيح وارتشاف خمر الزهرات.. والكتابة.

لا أدري لماذا أتذكر الآن كيف كان أبى.! أظنه كان مثلي الآن .!؟ فما وسعته ذاكرة الطفولة عندي ليس سوى صورة أمي كائنا متكاملاً ، متوحداً ، هي وهو في آن معاً .. أما هو فقد كان ذكرا للنحل - أيضاً - ، ومن ثم هانحن الآن - أبناؤه - ثلاثة عشر رجلا وفتاة منقسمين ثلاث مجموعات متناحرة ، وخلفنا ثلاث أمهات يطلقن نفير المعركة القادمة من أجل الميراث .. تري ماذا سيفعل أبنائي فيما بعد وكل ما تركته لهم.. كلمات.. كلمات.. كلام!؟

هاأنذا مرة أخرى أمام الزمن وجهاً لوجه.. ففي كل مرة أنوي فيها إنجاز شيئًا ما هامًا ، بحثاً ، أو كتابًا ، أو حتى خطاباً إلى صديق ، أراه أمامي يلاعبني مثل مهرج دامٍ كئيب ، يظل يراودني عن نيتي تلك حتى إذا هممت به ، رمى بي أرضا ومضي بخطوٍ ساخر جموح .. وهاهو الآن يفعلها مرة أخرى إذ ينسل من بين يدي يوماً في إثر يوم ، فيما ينوء ظهري بالأحمال المؤجلة تتراكم بلا نهاية. تري إلى متي يستمر هذا السباق الماكر فيما بيننا!؟ وهل تعنى هزائمى المتوالية أمام زحف جحافل الزمن الشرسة ، علامة من علامات الشيخوخة الخائنة ، التي ما أن تبدأ في طعن الظهر حتى ينحني رويداً رويداً إلى الأرض مأوانا الأخير!؟

□□□

**فى أيام الغربة السابقة..**

لم أنس قط مرآتي ، أحملها أينما ذهبت ، أطالع فيها وجهي كل صباح لأتأكد أنني مازلت ذاتي ، وأن الغربة لم تقوى علي دفعي إلى ارتداء أقنعة الاستخذاء والهوان التي يرتديها الإنسان كلما اشتد ضعفه أمام الآخر

الذى يمتلك مصيره بيده أو هكذا يتوهم - ..

ولكني أفتش اليوم عنها فلا أجدها بين أشيائي ، يملأني رعب هائل من مصير مجهول مروع ينتظرني إذا استمررت هكذا في الحياة هنا دونها ، حيث من الممكن أن تتبدل ملامحي، وتتشوه خارطة ذاتي، دونها ، دون المرآة . ساعتها لن يكفي مال الدنيا لإصلاح ما فسد ، ويكون قد حق على القول - تستطيع أن تكسب العالم ولكن تخسر نفسك - .. أنظر إلى ساعتي فأكتشف أن موعد العودة قد اقترب ، وإذن لا بأس فسوف أعود إليها ولن أدعها تفارقني، مرة أخرى .

□□□

### صباح مختلف

رأيته بجواري للمرة الأولى منذ زمن يحدق في مستنكراً، يدعونني إلى اتخاذ ثوب الحشمة والتزام الهدوء بصورة لم أعتد عليها، إذ لابد لي من انطلاقة صباحية متفجرة تذهب عني الخمول واللا رغبة في الحياة. هكذا وعندما قررت المغادرة، راحت نظراته تعاتبني، إذ كيف اترك الصغيرة دون إفطار..، لقد نسيت فعلاً.. ما لهذه المهنة شاقة هكذا - مهنة الأب - ولكن الحمد لله أن رقيبي الطيب معي حريص على تعليمي الطريقة الصحيحة للحياة مع كائن آخر حل في صحراء وحدتي ليغير بعضاً من إيقاع الغربة الرمادى.

□□□

### نزول متأخر إلى نفق الذكريات المعتم..

بعد نومة قصيرة علي حافة الهدوء الخادع! ولا شئ بين يدي الآن سوى بضع حبات من عقد العمر المنفرطة فوق الأرض تغريني لكي أجمعها..، وأنفض عنها أتربة النوم الإجباري في الزنازين الورقية الكالحة. وهل تكفي تلك الحبات القليلة لكي أجمعها إلى خيط الطموح قلادة للمجد الذي حلمت به والذي ضيعته - للأسف - فوق فراش البطولة الزائفة؟!

وحين تفرغ جعبة الحياة من الأهداف التي، هي، علتها وسبب استمرارها ، أكون قد اقتربت تماماً من النهاية. فالليلة يراودني السأم عن نفسي ، ويمنحني اليأس خنجره مثلوم النصل ، بينما يهتف بي القلب الساقط في هوي الحياة .. ألا أفعل.! ولا أفعل طبعا ..فما زالت تنقصني

الجرأة اللازمة ، ومازال يداعبني خيط من أمـل في أن أعيش لكـي أحسـن نفسي . فكلما يزيغ مني البصر بين الحادثات اللواتي جمعت خيطها علـى مغزل العمر أنشوطة محكمة، مغرية، كلما كـادت النفس تتقيأ وجودها المحشور بالحلق حشراً مثل عجينه يابسةٍ، وكلما دارت بالعقل دوائر تلـك المتاهة اللانهائية ، فلا يعود لدي مخرجاً سواه.. الموت الجميل.

وهذا هو .. صباح للمـوت.. ينزع عنـا رداء الاعتيـاد، ويضحـك عالياً بوجه دنيانا التي تخلو شيئاً فشيئاً من فرسانها الكبار لتفسح مساحة أكبر فاكبر للصغار الذين يبنون صروح المجـد الهشـة فـوق الموائـد العـامرة الـتي يهرول إليها محترفو هز الخصور وفرقعة الأصابع بحضرة الدينـار! أجـل.. فها هو ذا الموت ينتصر ويختطف قامة أخرى مهيبة نادرة مثل عبد العزيـز حسين ، في حركة طبيعية إذ أن السيف لا يطاول سوى القامات العاليـة ، بينما يترك الأقزام يملئون الدنيا ضجيجاً أما هـو فقد كـان - كـأي مثقـف حقيقي - يؤثر الصمت والعمل ، ومثله مثل أي مثقف حقيقـي تشـعر أنـك تعرفه وأنه صديق حميم دون أن تراه أو تجلس معـه.. تبكيـه وكأنـه عزيـز أهل..فأيا صديقي العزيز الذي لم ألتقي وداعاً ، وليلـهمنا الله الصبر علـى احتمال الآخرين.

وفي المساء.. تستيقظ شهوة الفرجة النائمة، يغويها القمـر العـابث مثلمـا يغوي البحر والعشق والسفر.. فيثور بها المد ويقعدها الجزر.. فـإذا لم يكـن هناك مسرح، نروح نخترع سبل الاجتماع اختراعـاً.. ولا أدري كيـف كـان الإغريـق يختلفـون إلي المسـرح صباحـاً تحـت الشـمس الفاضحـة للعـري الدرامي!؟

هو ذا عرض مسرحي أخيراً، تسابقني إليه خطى الصغيرة، فيما يخفـق القلب إشفاقا علي مغامرة صديقي المتمرد مع " رأس المملوك جابر ". ولكـن هاهي إشعاعات البهجـة تغذيـها حيويـة الممثلين تمتلـك زمـام الجميـع ، فتتبدد سحب القلـق ، حتـى لـدى مـن جـاءوا لا بدافـع شـهوة "الفرجـة" الطبيعية، وإنما بدوافع أخرى مسمومة يخبئونها تحت جلودهم السميكة ، ينتظرون سقوط أحدنا ضحية ليذرفـوا فوقنـا دمـوع التماسـيح، ثـم يسـتوون جالسين فـوق عظامنـا الـتي لا غـنى عنـها لصناعـة عروشـهم أو لتدعيمـها باستمرار .

□□□

صباحاً قزماً بشع الخلقة..

سقطت إليه سقوط الثمرة النيئة من عليـاء شجرة الليـل المورقـة بـالآلام والرؤى ، أدركت أنه قد حان أوان الرحيل من جديد ، وآن على أن أضـع مزاجي في حقيبة السفر وأعيش بقية الأيـام السـابقة علـي الرحيـل بنصـف رغبة ، معلقاً ما بين العودة إلى الوطن الـذي لم نخـتره ، هـذا الوهـم الـذي صنعنا منه مركـز الكـون.. ومـا بـين البقـاء في بـلاد الغربـة الـتي اخترتـها ومازلت حتى الآن أعاني من مشقة التوافق مع أجوائها الهادئة الـتي تكـاد توافق حلمي في منفي سعيد لولا إصرار كتائب المنفيـين علـى صبغـها بلـون الوطن! وهكذا يحق على القول:

" أين أنت عن غريـب لا سـبيل لـه إلى الأوطـان ، ولا طاقـة بـه علـى الاستيطان! "

□□□

فلما كان الصباح التالي..

وكان مثل أخيه قزماً هرماً اجتمعت بضعة وجوه شمعيـة كأنـها أقنعـة الموتى ، اجتمعوا حول باب الخـروج الـذي اسـتند إليـه العـراف الغجـري الأخير، يشهدون لحظة الفـراق بينمـا كـان هـو راقـداً فـوق أمتعتـه نصـف رقدة ، وقد تعلقت بذيل ثوبه الملطخ بألوان الأمس، طفلة قمريـة خضـراء ، يسيل من عينيها نور الدهشة البكر !

: الآن سوف يغادر – همس أحدهم لجاره

: أقسم إنه سوف يعود عقد آخر حاجبيه مؤكداً

: لا .. بل يقولون لن يعود ثانية ارتعش ثالث اضطراباً

: ليته يفعل! ضحكت فتاة لعوب –

: اصمتي أيتها القحبة .. صرخ الجمع بوجهها

فتح عينيه نصف فتحة، فبانت حمراء تنز دماء المرارة، قال:

: يا أولادي.. إني لابد مفارقكم، لأن الفـراق هـو عـين المحبـة .. فـلا تبكوا رحيلي بكاء التماسيح حـين تضيـع مـن بـين فكيـها الفريسـة.. فقط تعلموا معنى الفراق .. تدركون عمق المحبة.

□□□

**الصباح الثالث..**

بين سبعة أقزام خارجين عن الزمن المعتاد.. وكلما حزمت حقائبي مسافراً إليك، تفلتين هاربة على ظهر إحدى غيماتك الملونة إلى حيث لا أستطيع لقياك! إنها هي ذات اللعبة القديمة، تلعبينها معي، وكأنك تصرين دائماً على اللانهاية ، بينما أصبر أنا على عجزي عن فهم هذه الحقيقة البسيطة ، فما أنت سوى الماضي.. الماضي المستمر ، وما أنا سوى هذا المخلوق العاجز ، المتردد ، مقيد الأطراف ، مكبل الروح.؟

وإذن فإلى متى هذا الرعب يشمل كياني، ويمنعني عن قبول الزمن، رعب أن أعود إليك فأجدك حاضرة بين يدى!

□□□

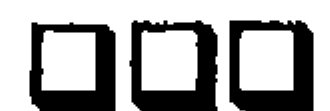
**صباح رابع ولا جديد..**

سوى أصوات الذاكرة: أسمع صوت الممثل كين فى مسرحية سارتر يصرخ: " نمثل..! لأننا إذا لم نمثل سنصير مجانين.. التمثيل..!! وهل أعلم أنا متى أمثل؟! وهل هناك لحظة أتوقف فيها عن التمثيل؟! "

فهذه الصرخة تظل تدق ناقوس الذاكرة كلما اقتحم سكينتي هاتف جديد بصوت أحدهم يلاعبني لعبة "الصداقة" الكاذبة، أتساءل متي يتوقف الناس عن التمثيل!؟

يبدو أنه ليس هناك سوى خيط رفيع ما بين ممثل المنصة وممثلي الواقع.. فالأول يفعل بدون مقابل سوى متعة العقل.. أما الآخرون فيلعبون لعبة الألفاظ ولهم في ذلك مآرب كثيرة. إنها العتبة الفاصلة ما بين الفن والزيف، ما بين الفعل شبه المقدس ، والسلوك المادي الذي لا يخلو من عهر متدن.

وبالمناسبة أنتهي من كتابة دراسة لمجلة عالم الفكر بعنوان : " ازدواجية الأنا – الآخر " حول قضايا ومشكلات فن الممثل العربي . أعتقد أنها تصلح مدخلاً لكتاب فى الموضوع .!



الصباح الخامس ..

من بعد فاصلة الصباح الموقوف ، مثل عتبة ثقيلة قبل كل أسبوع ، هذا هو الصباح السادس بين الأقزام السبعة.. فوق الفراش بقايا حلم أحمق ، وعلى الطاولة مخلفات ساذجة نثرتها يد الصغيرة الجاهلة بعد عبث التقاليد التي أحاول جاهداً تلقينها إياها بصبر نافذ ، فليس هذا من اختصاص مهنة الأب ، فله شئ ، وللأم أشياء ، ولكن ما العمل إذا كانت الأم قد اختارت طموحها العاجز بدلاً عن دورها الحقيقي في رعاية زهرات العمر؟ فهل أصلح أنا ما أفسده الدهر!

.. وهنا اجتمعت صحبة الأسبوع، فاليوم جمعة، وأنا متى يكون جمعي!؟

أتذكر الحكمة النافذة: "إذا كنت تأسي بحر المصيف، ويبس الخريف، وبرد الشتاء.. ويلهيك حسن زمان الربيع.. فقل لي: جمعك متي!؟"

❑❑❑

يراودني الآن مثلا مشروع رواية فلسفية بعنوان " أيام الغربة الأخيرة" من نوع أدب الاعترافات.. المادة شبه جاهزة.. ولابد من كتابة مقدمة حول معنى الغربة وكيف أنها انتقال من مقام إلى مقام، قد تكون من مقام السلام إلى مقام الحيرة أو قد تكون العكس .. وكيف أنها ولادة وموت معاد .. إنها اللحظة الجدلية الأصيلة الوحيدة .. لحظة الفعل السلبي.. ولكن لماذا هي "غربة".. من الغرب ولم تشتق من كلمة شرق.. أيكون هذا جرياً على منوال المثل الشعبي لاشيء يأتي من الغرب يسر القلب ، أم يكون ارتباطا بالمعنى المصري القديم حيث كان الموت انتقال إلى الغرب مثل غروب الشمس..!؟ أيام الغربة الأخيرة.. !؟ ما تلك التسمية!؟ وهل أملك أنا أو سواي أن نقول الكلمة الأخيرة بوجه الحياة؟ وهل تكون هذه سوى كلمة الموت يقولها بعد أن تطوينا ظلاله فجأة !؟ وهل هي حقاً غربتي الأخيرة !؟ أم أن الحياة كلها ليست سوي غربة أولى!؟ وهل أستحق أنا جدارة هذه التسمية.. وشرف ذاك اللقب " الغريب " .؟ ياللأسئلة تقف بوجهي مرايا جارحة تدمي العين والقلب

معاً كلما كنت بين ظهراني أهلي وبني وطني!؟ وكأني من قصده ــ أبو حيان التوحيدي ــ بالقول: " الغريب من إن حضر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً " من " طالت غربته في وطنه، وقل حظه من حبيبه وسكنه " الذى هو " في غربته غريب "!

□□□

**عودة أخرى ..**

قلت عودة.. فيا ليتني.. ولو في صورة جرذ ضئيل علي مقعد شاحنة عملاقة من نوع الجامبو ، أو على هيئة جرو صغير أمام شباك في ساحة الفرز عند نقطة الهبوط أو الصعود..فذا هو الوطن بلا أبواب توصد في وجهي..ولكني لا أستطيع الدخول..وأولئك هم الأهل والأصدقاء.. وجوه وأقنعة تحتشد من حولي، تتفحص حقائبي، وتفيض تحية وسلاماً.. ولكن .. لا أحد هنا ينتظرني هنا :

قلت: عودة.. !

قالوا: محال.. فذا جزاء الغربة المجانية، يلقاه كل من تجاهل قيمة العملة ومعنى الفرق والاستبدال ولذة الحساب والادخار، من تحامق وحسب العالم له وطناً فينتهي هكذا.. هنا أو هناك.. بلا ثمن!

مساء بطعم الملح الفاسد..

تلفظني الأماكن إلى اللامكان ، فأتخير طاولة غير مريحة، ويأتيني النادل كاره الوظيفة، أطلب مشروباً لا أريده الآن، أحتسي عدة زجاجات مغشوشة، أحملق في أسرار القبح المحيط بي مدعياً التأمل..!

وعلي مقربة من زاوية اغترابي الأخيرة تلك، يبادرني شخص ما يظن نفسه صديقاً قديماً، يسألني عن أطفالي ويتطوع ببعض النميمة عن المرأة التي لم تعد زوجتي : إنها الآن تفعل ما يحلو لها!

ولا أبالي.. فقط يقف شئ ما فجأة يتوسط حلقي، أكاد أختنق، ولا أفعل.. أغادر اللا مكان إلى "لا مكانٍ" آخر لعلني أجد هناك من لا يتعرف علي صورتي المهشمة، فأستريح قليلاً من عبور المشاة بين طرقاتي الداخلية المزدحمة.

□□□

**صباح باكر جداً مخلوط ببعض ليل..**

انتفض بوخز حلم ثقيل، أخوض في ظلمة مهجورة موحلة فلا أستطيع العودة إلى وهدة النوم.. أذكر أنني قد كتبت قبلاً:

" ومن ينام!؟

ما دام القلب النئ يشتهى القطاف !؟"

فهل هذا ما يمنع علي النوم الآن بعد ثماني سنوات، ألا زال القلب نيئاً يشتهي القطاف، رغم تعدد الزيجات، وتوالي التجارب هنا وهناك.. أيكون كالأرض المالحة لا تشبع من ري ، ولا تثمر لا عنباً ولا تيناً، أو يكون زهرة صبار كالحة ترويها الدماء!؟

أتدرين ..كان يمكن أن أحبك هذه الأيام بكل العمق اللازم لاستيعاب تفاصيل ، أو تفاهات ، العالم الأنثوي الملون ، ولكن يقف ما بيننا ، ما كان يمنعني عنك دوماً ، هذا الطموح العاجز ، الذي سكن روحانا ، وأفسد طعم حياتنا ..

فلأنك لا تراني.. لا تفعل سوى أن تصطدم بي في كل مرة تتقدم فيها نحوي سواء بالصوت أو النظرة أو بالحركة! ولأنك لا تسمعني، فما تفعل سوى أن تبعد عني كلما ناديت عليك أو هرولت إليك خطواتي!

فلأنك لا ترى أو تسمع أحداً غيرك، فإنك لا تريد سوى أن تجعل مني مرآة عاكسة تري فيها ظلك معكوساً، وتسمع فيها صدي صوتك منغماً، ترد الإجابات التي ترتاح إليها، وتحاكي ردود الفعل التي تنتظرها..وتقول إنك تهواني في حين أنك لا تعشق سوى ذاتك، وكل ما هو "ملكية" خاصة لك وحدك .

□□□

هل هذا هو وطني.؟ ..أقنعة لا حصر لها، تنبت حولك في كل مكان بصورة عشوائية ، علب معدنية تزعق سادرة ضد كل نظام، معلبات إسمنتية تتراكم وتعلو علي مدي البصر في قبح لا يضاهي.. وكأن هذا كله حصاد بذور شيطانية لا جذور لها..فما الذي حدث في بلادي.؟ لابد وأن شيئاً جوهرياً يتغير يوماً بعد يوم، شيئاً ما بعيداً عما يظنه البعض مؤامرة مدبرة ضدنا.. شيئاً ما جعل من الكذب والفهلوة واللا أمان فضائل عليا، وهبط

بالصدق والأصالة و"الجدعنة" إلى حضيض النقائص.

بعد غد أعود.. ، وينتهي فصل من فصول الرحلة.. تري هل هي مجرد رحلة في المكان، أم أنها ليست سوى صورة متحولة من صور الرحلة الدائمة، رحلتي داخل هواجس العقل، وشوارد النفس، وخطرات الجسد، بحثاً عن الذات الهاربة الضائعة في زحام الضجيج الأرضي.

اللعنة! فهذه ليست سوى مصيدة.! هكذا ينكشف لي البصر فجأة، أنا العصفور الجنوبي المهووس بالطيران إلى ما وراء الأماكن المظلمة والمزدحمة بوجوه البشر المفترسة، من محترفي صيد العصافير الساذجة أمثالي.! فهذا العش القديم المدفون بين أحراش الذكريات والمسمي وطناً، لم يعد بالنسبة لي سوى مصيدة ينتظرني عند كل زاوية منها طعم أو أكثر وضعه واحد من أولئك الأشقياء المعروفين كونهم أصحاب حرفة من لا حرفة له، حرفة – السمسرة – ..

وهكذا..ففي هذا اليوم المجهول من أيام الغربة المتلاحقة التي أعيش الآن آخر مراحلها قريبا من حافة الموت المفاجئ.. في هذا اليوم قررت لملمة جناحي المكسورين، ومحاولة الطيران بما تبقي لدى من الريش الذي اجتمع العابرون من كل صوب علي نتفه باستمرار. وقبل أن أصبح عارياً تماما ، مشلولا، غير قادر حتى على مجرد التنفس.

نهار صعب!..تمضي لحظاته مثقلة تحت الشمس اللافحة، وكأنه واحد من بين عشرات العبيد تجلدهم سياط عمياء فيما هم مُساقون طابوراً طويلاً فوق صحراء الزمن الملتهبة. هكذا تمضي أيامي.. " أيام الغربة الأخيرة " ولا تتوقف عند هذا المنحني الضيق حيث تسقط صخور الغربة فوق ممر الوطن ، حيث لا يمكنني العبور إلا مثخناً بجراح طازجة تتورد كل لحظة فوق صدري المفتوح شراعاً بوجه الريح العاصفة.

□□□

**صباح حار ..**

من نهار صعب فعلاً ..لا ينفيه إلا النوم .. النوم – الصمت.. ولا أكثر! تغيم سمائه أبخرةٌ مختلطة بالتراب والروائح السامة تلف الرؤوس الصلدة الماشية في إصرار تحت شمس غاضبة تذيب الأجساد لزوجة لا تطاق،

فتصبح كتلة متموجة بلا ملامح تبتلع الأماكن.. صباح قريب من ذاك الصباح الذي هبطت فيه حتحور ابنة رع الوادي منذ آلاف السنين تفتك بالرعية الخارجة عن ناموس الحضارة إلي أوحال الفوضى! في مثل هذا الصباح الملعون بلعنة الشمس الإلهية، أشد على كتفي حقيبتي المثقلة بما تبقى من نخالة محصول السنة، تتلقفني أيادي السماسرة بحثاً عن مأوى للأطفال بثمن متواضع هو تلك النخالة الباقية من العيش علي هوي الصدفة فأخيراً.. عقدت العزم على تسكين سورة هذا الذئب المقيم ولو بالأجل، فلا بد من منزل لمستقبل الأطفال ومقبرة الماضى معاً، لابد.

❑❑❑

من بين طابور الأصدقاء الذين شغلوا لزمن طويل أرصفة القلب لم يتبق سوى هذا الصديق المدلل، العزيز جداً ، هو وحده من أسعى إليه، نسهر، نتسامر، نعد لمشروعاتنا الكثيرة القادمة التي نعلم جيداً أنها لن تتحقق. نتباكى على شبابنا الجميل المنفلت من بين أصابعنا مثل حبات المسبحة.. نصطنع لأنفسنا لغة نضحك بها علي حماقات الآخرين من حولنا.. وعندما يغيب فجأة كعادته، أكون غريباً عن كل الأماكن التي تعرفها، منقطعاً عن زمن التواصل، يدخلني العابرون على سبيل التجربة، ويخرجون عبر تلك الأبواب السرابية المرسومة.

أجمل ما في الصداقة هو أن تجد لنفسك شريكاً في الهوى والفكر وحتى في ما يحسبه الآخرون عليك من عيوب. إذ يتجلى هنا وبحق معنى الصدق في العلاقة، فإن تجد شخصاً تعجبك مزاياه وتحبها وتعجبه ميزاتك ويطمئن إليها ليس بالأمر الصعب، بينما الأكثر صعوبة هو أن تجد إنساناً يتقبل عيوبك وتقبله أنت أيضاً بكل علاته ونقائصه..فهنا - فقط - تبدأ مسيرة الصداقة الحقة، إذ لا صداقة مع القناع، قناع الهيئة الاجتماعية المتجمل بالمحاسن الخارجية الملونة.. أقول هذا لنفسي الآن بعد أن جمعني القدر وهذا الصديق الذي شاء القدر أن نتقاسم معاً زمناً مقتطعاً من أيام الغربة، فاستطاع كلانا احتمال الآخر، هذا الذى لا يحتمل.

❑❑❑

**على حافة الأربعين ..**

ما الذي يجعل من أيامنا وأحلامنا وأوطاننا غربة قد تكون هي الأخيرة، بعد غربتنا عن جنة السلام في أرض الشقاء؟! أتساءل أنا الخارج من كهف الصمت الأخير، إلي سهل الكلمات مرة أخرى كالمبعوث يوم الحشر من الموت الطويل! .ما الذي نفتقده هاهنا لكي تحق علينا الغربة؟! يقيناً أنه شئ لا تتسع للبوح به تلك المساحة الضيقة المقتطعة بين زحام الكلمات وعصا الرقيب النافرة بين منع ومنح. لكن ما العمل؟ والقول يفيض.. يملأ شقوق العقل المجدب المرتكن إلى صخور التخصص مرهفة الحد، ويعلو ليغمر الكيان الهارب من لذة الاعتراف خشية التعري في زمن "الحجاب".

❑❑❑

**أربعون ..**

هل يعني هذا الرقم شيئا الآن ، وفي هذه اللحظة الفاصلة على شاطئ الزمن..زمني..!؟ الساعة الثانية عشر مساء يوم الجمعة..أحاول أن أكون نفسي..وحيداً..غريباً..بلا أهل. أرفض أصوات الماضي المستمر .. أفتش عن نغمة جديدة .. أطالع مرآة الذاكرة المتسخة بدماء وروث الراحلين ، والغائبين ، فلا أتبين خطوط وجودي إلا كومضات نجم آفل بين سيقان الوهم . وإذن لا أمل في حياة جديدة ، بعد الأربعين ، إلا مع صورة جديدة لمعنى النضوج .. فلأستعد لها بطريقة مختلفة في اللباس والحديث والسلوك، بالبحث عن حقل جديد للإبداع .. السينما هي فن اليوم .. وداعا للمسرح .!

❑❑❑

**الأربعين**

هي المقام الجديد للنفس .. مقام وحيد ، يكون هو المركز الكائن بين اللا بداية واللا منتهى .. فلا قبل ولا بعد . هو مقام الكمون ، والتأمل الخالص .. فيه كمال التركيز ، وعمق الاندماج في الفعل .. وهو المقام الوحيد الباقي للتحليق فوق كل ما يثقل الجسد ، ويخنق الروح .. فوق الاحتياج والخوف .. هو المقام المرتجى.. فهل أستطيع الوصول؟

❑❑❑

الآن.. وقد هدأت الأمورٍ داخل معسكر العمل الذي لا ينفك يعتمل بألوان الصراع المجاني يومياً ، يكون المرء أقرب ما يكون إلي نقطة الإبداع التي تبدو مستحيلة في ظل الدخان والصخب اللذين كانا يغطيان بكثافة ساحة المعركة الدائرة بين مرتزقة الفن ، أولئك الذين دأبوا على تفريغ الأشياء الجميلة من كل معنى وتحريفها لتخدم مصالحهم فقط، ولتخفي فقرهم الإبداعي، هذا الفقر الذي لا تعوضه أموال الدنيا كلها.. وإذن فلأحاول مرة أخرى أن أفعل شيئاً.. لعل وعسى!..ولا جديد!

□□□

صباح باكر جداً..

اليوم عطلة، تغريني شوارع المدينة الخالية بحرية مؤقتة.. فلا أتردد في الخروج .. صباح هادئ.. أيها البحر الكريم، هلا مازلت تحبني كما كنت قبل أن تدعوني إليك، أم تراك تكره اليوم حبي!؟.. لست أدري . !

"ولقد سألت الشاطئ عن سر هواه..ومن أوثق عهده بالبحر ومن أغواه.؟

فما سمعت بالفضاء غير أنين شكواه..أعلمت يا بحر سره، أم انك لا تراه.؟

ترى الشاطئ كالبحر كمثلي !؟.. لست أدري.! "

□□□

رأس السنة ..

بعد قليل ينتهي العام السادس بعد التسعين ، بعد الألف الأولى من ميلاد المسيح ..فياللخيبة .. حتى الزمن ليس لنا .. زمن الغرب .. لاشيء لنا سوى الوهم يقودنا إلى الوراء .. إلى ما وراء شرنقة الذات . ألاحظ أنه وفي مثل هذا الوقت من كل عام يتحول عقلي غريزياً ، إلى بالونة ضخمة تمتلئ بدخان الذكريات .. هكذا فجأة أجد نفسي في حالة وجوم .. بي رغبة في الصمت والعزلة والبكاء . أبكي ..!أنا ..؟ وهل أستطيع البكاء حقاً ..!؟ وهل يبكي أصحاب العذابات المختلقة .. الشعراء .. هل يبكون ، وهم يعرفون أن البكاء للصغار وللألم الصغير .؟ وإلا فماذا يجدي البكاء لمن صعد بنفسه فوق الصليب ، فارداً ذراعيه للحثالة يدقون فيها المسامير ..؟ هل يبكي الشاعر ،

الرائي ، بماء العين .. أم تراه يبكي بكاء الـروح ، الذي لا تدركـه الأبصار المعلقة بظواهر الحياة .!؟

لست أدرى!

❑❑❑

**وجع الليل ..**

يا ليل.. نداء الناس في بلادي عندما تغني جراحهم الغائرة القديمة قدم التاريخ..رغم أنهم كانوا يعبدون آلهة الشمس..النور..النـــهار، وكـان الليـل عندهم هو مملكة الظلام..الموت..الشر!

يا ليل اسمــع.. يا عـــين
يا بوى..يابو المواويل
يا ليل..الصـــبر فـــين؟
يابا الحـــمل تقـــيل.

أغني معهم أنا المغني الحزين..أنادي: من يشتري غنـوة.؟ مـن يشـتري صوت.؟ أنا المغنى العليل.. وعلتى: بحبك..موت.!

❑❑❑

**فـاصـل ..**

فيه انتقـال إلى حـال الطـرب للسماع، بـالحواس الداخليـة للإنسـان، حيث يستقر في العقـل عمـق المعنـى ، وأسـرار الـتركيب اللغـوي، وروعـة الابتكار اللحني، بينما يلتذ القلب بسحر الصوت الخالص، وحلاوة اللفظ. هكـــذا تتهيأ الروح للمفارقة،والتحليق فـوق العـالم المـادي الثقيـل، لتعـود بعدها عودة خلي البال، الفرحان. أما ما يضج به الأثير في أيامنا هذه، فـلا طرب ولا عجب.!

أقرأ مقالة للموسيقى المبـدع عمـار الشـريعي وفيـها يقـول : " أصبحـت الأغنية تخاطب العين قبل أن تخاطب الأذن "! يبدو أنه لكـي تفـهم سرٍ تعلق شباب هذه الحقبة الرمادية بهذا [ الـردح ] الإيقاعي، المشحون عنفـا وشجاراً صاخباً، عليك أن تجرب كيف يعيشـون الحـب أولاً ، عندهـا قـد تفهم مثل – سر سطوة الغانيات ، المغنيات ، من أمثال تلك المـرأة الـتي تزأر شامتة " تدرى ليش أزعل عليك "؟

الصمت.. هدأة الروح.. امتثال كامل لصوت الداخل، إنه التعبير الحـي عـن السـلام، ولكـن هيـهات.. فـالوقت.. كـل الوقـت.. للغنـاء.. صخـــب

المشاعر، ثرثرة العواطف وفوق هذا وذاك يأتينا هذا الإيقاع الممسوس وكأننا صرنا جميعاً (مريوحين) رواد حلقة زار تبدأ مع الصباح ولا تنتهي.. فالفضائيات وإذاعات الأغاني تعمل ٢٤ ساعة كاملة ولو أدرت ظهرك لكل هاتك الأجهزة فسوف تغدو معزولاً، مثيراً للشفقة الهازلة!

أفكر .. ما الذي سمح للغناء أن يقاسمنا حياتنا بهذه الصورة ؟ هل أصبح الغناء هو ديوان العرب!؟ بعد أن كان مجرد عنصر احتفالي وطريقة للمشاركة في زمان ومكان مخصوصين، خارجين عن حدود العادة اليومية!؟ هل لاتصاله بالشعر من حيث المبدأ ..؟ أليس هو مونولوج الوحدة.. هياج الروح والجسد ..نفور إلى الخارج.. نداء الرغبة ينادى الآخر المحتجب ويستثيره! ، فلماذا لا يتسيد إذن حياتنا اللاهثة العارية عن المعنى، الموحلة بطفح المادة والحسيات، ولم لا يتقدم ليملأ المساحة الشاسعة التي صارت تفصل بين الناس في الوقت الذى تتورم فيه الذوات الفردية إلى حد الانفجار.؟

فعوضاً عن السلام الذي كان يحط به الطرب القديم فوق أرواحنا ، ليس حولنا اليوم شئ سوى العنف يأتينا من كل صوب .. ويوم بعد يوم.. تؤكد نتائج العلاقات الملموسة مع الآخرين ، أننا نتقدم باطراد نحو الوراء.. إلى الذات نكتفي بها عن كل ما هو موضوعي.. يحاصرنا منٍ ردة تكاد تشعل النيران في كل ما هو إنساني، معاصر ، ليس شيئاً خارجاً عنا.. هذا العنف الدموي ، الذي صار هو الماركة المسجلة المميزة لنا لدى أناس الغرب، حتى هذا العنف موجود داخلنا، تراه وتلمسه حياً، متفجراً في كافة ألوان صراعاتنا اليومية، يكفى أن تتحرك جهة ذات الآخر حتى يكشر لك عن أنيابه مستعداً لافتراسك، سواء كان هذا الآخر صديقاً أو أخاً أو زوجة أو ابنا.. الخ..

عنف مستفز جاهز للانقضاض تراه في العيون من حولك تحت تلك الغلالة الشفيفة من قناع الاجتماع اليومي.. وأفظع ما فيه انه وبصورة لا شعورية - مرض معد .. سريع الانتشار..

❑❑❑

**يوم للفقد..**

ما الذي يدفع الإنسان إلى اختيار الانتحار فعلا للرفض،للتعبير عن عدم قدرته على التوائم مع المحيط،وعدم القدرة علي التغيير،ولماذا لا نرى عادة في هذا الفعل شيئا آخر غير التعبير عن اليأس والإحباط ؟ ألا يمكن أن

يكون هو أعظم الأفعال قاطبة.. فعل واضح ، صريح إلى حد الموت، أليس هو الرفض بذاته. لا ينتظر جزاء أو تعليقاً، ولا بسعي إلى شهرة ، أو إلى أية مكاسب مادية أو معنوية أخرى..

على مائدة الصباح ـ المتعثر ما يزال في سروال الليل ـ يفاجئ اطمئناني الكاذب انبثاق الدم الحار من قلب صفحات مجلة " روز اليوسف "، تبكي موت واحدة من بنات جيل المبتسرين ـ كما أسمتهم هي ـ ، موتاً مدهشاً، فقد ألقت بجسدها النبيل من الدور الثاني عشر إلى الشارع الفارغ اللا مبال ، الذي غنت له مثلنا يوماً خلف صوت ماجده الرومي " الشارع لنا..إحنا لوحدنا ".. لكن الشارع لم يعد لنا ، ولا أي شيء آخر في ذلك الوطن!

❑❑❑

**مساء قابض**

هذا المساء الذي أتجرع ساعاته مرغماً،تغمر مرارتها النفس القابضة على جمر المصير المتأرجح بوجه الريح، ثمرة الروح النيئة تشتهي القطاف..فلم اللوم صديقي المتكئ على الضفة الأخرى من العمر،والكلمات قدر يختارنا و لا نختاره ! لاشيء عرفناه نهائي، وما لم نعرفه لازال هو الكل..نحن كما قيل لسنا سوى مشروع معرفة. ليس لدينا شيء سوى كلمات .. كلمات.. كلمات.

❑❑❑

**وأخيرا..صباح جميل!**

مضي من الزمن المراوغ ثلاث سنوات إلا شهرين بعد ميلادك ، الأمومي الظاهر – كمخلوقة فاتنة " جميلة " ، وهو الميلاد اللاحق على ميلادك الأبوي الأصلي بتسعة شهور تقريباً.! طفلة رائعة كما في الحكايات والأساطير التي وددت لو كانت ترويها لي أمي. فكم هو صباح جميل..هذا الصباح الذي أصحو فيه من نوم لم يتعدى الساعة ونصف ساعة لأجدك معلقة بين أهدابي قطرة عسل تسقط إلى فمي..فأنطقها بذات الحروف التي جمعتها لك أمك بذوق فرنسي النكهة..جميلة ، الاسم الذي يحمل في صداه ذكرى لابد ستعرفينها يوما.. ولاشيء أكثر، سوى اسمك هذا الذي صحوت علي مذاقه الشهي، فجربت أن اكتبه مادمت لا أستطيع وضعه على شفتيك قبلة أبوية ناصعة.

❑❑❑

أيـــام للمراجعة ..

أمـا وقد جاء الصيف، فليس أمام الكيان الدائر في عجلة العمـل العبثيـة إلا العودة إلى كهف العائلة ، فياليتني.! وآنى لى عود!

وقد أحرقت سفائني، ولم يعد أمامي سوى البقاء وحيداً في أتون الغربـة المستعر ، لكن من يدري؟ هاأنذا أمـام مـــاكينة المعلومـات الأسـطورية الـتي صنعها الإنسان نموذجـاً مثاليـاً لـما كـان مـن الممكـن أن يكـون عليـه عقلـه المسكين لو لم تكن بداخله تلك النفس الآمارة، التي تستهلك نصـف طاقتـه الذهنية مشاعرٍ وأحاسيسٍ متضاربةٍ. وهـــاهو يعـود كـ [بيجمـاليون] أمـام صنعته، مغرماً، ضعيفاً، مستهاماً.! والآن هل لي بالشعور، بـالحنين، وقـد سقطت في شــباك إحـدى السيرينات، المتحـولات، وقـد اتخـذت لنفسـها محارة عصرية،اسمها "الكمبيوتر"؟

لاشيء إذن سوى الكتابة..العمل.بلا توقـف، فـهنا الوطـن الحـق لكـل كاتب.."الأوراق" عليها نولد، وفيها نموت.هي الرحم، وهـي الكفـن.. لهـا المحبة، وعليها ومنها السلام.

□□□

صبـــاح ســـابـع..

ولم يزل البحر هو البحر بعيد المنال ، والأفق المحجوز خلفه،.. صبـاح ثقيل..تختلط فيه رطوبة الصحراء العارية و أبخرة البحر الملونة بزرقة اليود يذكيها اللهب الشرقي يندفع من فوهـات متآكلـة،عميـاء. يدفعـني الشـجن المتزايد إلي التفكير بمن هناك..من خلفتهم علـى الجهـة الأخـرى و كـأنني مخلوق أسطوري عليه أن يحمي الجميع و يشملهم ببركته الدائمة حتى ولو كان الثمن هو ضياعه الشخصي..

ولكن على منذ الآن أن أمتلك زمام الحقيقة.. فـــ" الشـجاعة الذهنيـة " هي ما أحتاجه اليوم..أن ارسم انطلاقا من التاريخ الذاتي لأخطائي النموذج الموضوعى لحياة أفضل.

اليوم أمـــر..أقولها بوجه تلك المرأة التي سرقت ثلـث عمـري، أركـض بحثا عنها بين دهاليز النصف الأسفل من " النسيان والهجران والتعـب "، ولم يعد يكفيها سوى أن تلتهم البقية الباقية مـن عظـامي المذابـة في حسـاء

دمي المسفوح حلالاً لكل العابرات فوق جسدي. وإلا فالتشهير والتهم تـهال فوق صورتي المعلقة في ساحة الإعدام، يرميـها العـابرون باللعنـات مـن كـل صوب، يجاملون دموع الأنثى المسكينة، مهيضة الجنـاح ، ضحيـة الرجـل المستبد!

□□□

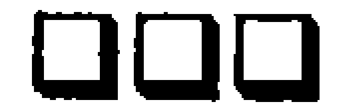
**عيد الميلاد ..**

اليوم الحادي عشر من الشهر العاشر من العام .. هو عيد ميلادي الأول بعد الأربعين . عيد.؟ بأي حال.؟ لا أدري لماذا يمنح الناس أنفسهم حـق الاحتفال بذكرى ميلادهم وكأنه عـيـد .؟ يمكن أن تحتـفل جماهير المؤمنين بأعياد ميلاد الأنبياء والقديسين والعظماء من الرجال..ولكن أن يجعـل كـل منا من ذكرى ميلاده الشخصى عيداً فتلك مبالغة مؤسية . !

لكن الأمر صار يجري بقوة العرف المكتسب. وفي مثل هذا اليوم يجتمـع الأصدقاء والأقارب ، أو يرسلون التهاني ويقدمون الهدايا. في الوقـت الـذي يجـب أن تكـون هـذه فرصـة مناسـبة للشـخص لكـي يجتمـع إلى نفســه ، وخاصة إذا كان مثلي واقـفاً على حد الأربـعين المسنون ، ينظر فيمـا مضـي وما قد تبقى من العمر. هي فرصة للتـأمل..فسحة للحساب ، وللجمع بـين طرفي معادلة الوجود : الذكــرى الـتي يمثلـها الأمـس الهـارب والإدراك أو الحاضر ، واللذين يمضيان هكذا دوماً في تقاطع. فلا يلتقيان إلا ليفترقا مـن جديد.

أنا الآن في مكان جديد أرسم حدود المنظر نفسه،بين يدي أكوام الكتـب المسكينة، واللوحات التي أصبحت بـدون إطـار، وكـل التفـاصيل الصغـيرة التي سئمت الترحال..أكتب أياماً أخرى من أيام الغربة الأخـيرة..مـن قـال إنها الأخيرة.؟

يبدو أن هناك فرق بالضرورة بين أدب الـمهجر وكتابـة الغربـة..فـالأول نتاج غربة المكان واللغة وطريقة الحياة..بينما الأخرى هي غربة الداخل عن الخارج حتى ولو لم نغادر المكان ، أو نغير اللسان وطريقة الحياة..



### مناوئة ليلية ..

يدخل منها النوم إلي مدينة جسدي المهزومة ، يعتقل الرغبة المشاكسة، ويلقي بي في جوف الأحلام الملونة ببقايا الذكريات..فأتوه بين أصداء الزمن القديم!

وعندما أحاول الصحو..يندك برأسي عمود من نار الحقيقة، فـأنفجر في صحراء الضياع بلا هدف سواه..النوم!

النـوم غايـة البائسـين، الضـائعين بـين المـدن، يتسولون لحظـة حـب حقيقية ، يرسمون على الوجه بسمة كاذبـة، يغنـون لكـل مـن لا يستحق أغنية الوداد، بينما يزدحم القلب المصدع بمئـات الجـراح وكأنـها وحـوش خرافية مسعورة ينهش بعضها البعض!

❑❑❑

### نهار عاري ..

تشـتعل تحـت شمسـه الجارحـة أوهـام العشـق الليليـة..فـأرتد إلى الذات،وكأنني قوساً مشدود الوتـر..كلما يعبـث بـه نسيم عـابر انطلـق في نفسه!

ياللروح الشائخة..يالمنفاي..والمدى ضيق،بلا أفق..لاشـيء تسـتقر لديـه العين إلا ظلام يكسوها بالعمى.

الصحو يطردني من مدينة جسـدي المظلمـة، يلفظـني الفـراش الملـوث، فأغادر جوف الأحلام الملونة ببقايا الذكريات،إلى رصيف الانتظار بلا أمل.

وليل كموج البحر..

هو الليل الفاصل مـا بيـني وبينـى.! تجـوس في ظلمتـه أطيـاف الأمـس الجريحة،ترقص رقصة العذاب يدا بيد هواجس الغد العمياء..

فلما الإنكار.؟ وكلنا منقسم،مشطور،بالفطرة..زوارق نوح تمخر بكل زوج عباب الطوفان الممتد منذ بداية السقوط إلي أرض الغربة الأولي وحتـى يحـين الميعاد.!؟

❑❑❑

**نزوة :**

أحبك .. ياللكلمة الناعمة تسقط هكذا من فمنا ـ دون عناء ـ وتعود مثل قطعة اللبان بلا طعم .! نطلقها في وشوق رماة محترفين تعودوا إصابة الهدف من الرمية ـ الكلمة الأولى.!

أحبك .. يالها من كلمة قاضية ، تخترق صدر الضحية الغبية دون ألم ، بل على العكس في لذة واضحة ، لتستقر في موضع مخصوص من القلب ، تنتظر الوقت الكافي ، قبل لكي تصدأ ، ثم تنفجر تنشر في الكيان المصاب سمها القاتل. أحبك .. قلتها ، تسبقني يداي ، تفك عن الجسد ، الملتف حول نفسه ، إزار المقاومةٍ المهترئ كلمة واحدة .. أحدث وقعها على مسامعك انفجاراً هائلاً ، سقطت بعده كافة خطوط الدفاع الواهنة مكرمِشة بين قدميك لتسحقينها بعد لحظات قليلة ، قبيل أن تستسلمي تماماً أمام هذا الهجوم المباغت ، الذي استعدت جيداً له منذ فترة طويلة عبر دفعات متلاحقة من الاستفزاز الأنثوي المخطط ، يمتلأ كيانك الظامئ بالخدر اللذيذ المنساب تدريجيا ، مع كل مرة تتكرر فيها على مسامعك نفس الكلمة ..أحبك.!

❑❑❑

**ليلة خميس ..**

بانت علامة..ضوء مفاجئ في عتمة مطبقة ظننتها لانهائية..اهل لي أن أصدق الآن أسطورتي الذاتية.؟ هل لي أن أتبع العلامات المرسلة حتى النهاية.؟

فٍى رواية " ساحر الصحراء " الرائعة يمضي البطل مغمضاً، ساذجاً، غبياً ـ كما يصفه زعيم اللصوص .! ـ يتبع علامات غامضة في طريقه إلى الكنز المخفي تحت الأهرامات،ليحقق أسطورته الذاتية..ذلك أن تحقيق الذات هو الالتزام الوحيد للإنسان على الأرض...

" كل ميسر لما خلق له. "..أقول لنفسى هاذياً، لا أدرى من أين تأتينى هذه الكلمات القديمة ، ولا كيف ومتى حفظت تلك الحكمة الجليلة..!

وإذن لابد من الاستمرار دون خوف..لابد من مواجهة تلك " القوى الغامضة " التي تعترض طريقي في سبيل تحقيق أسطورتي الذاتية..حتى

الحب،العشق بمعناه الكامل كما يسميه ايلـور، لا يمكـن أن ينـأى بإنسـان أبداً عن أسطورته الذاتية..ولو حدث فلن يكون سوى رغبة شيطانية يجـب التخلص منها بلا رحمة.

❑❑❑

صباح أخير..

وليتـه يكـون آخـراً..فتلك علامـة ثالثـة، الأولي كـانت رسـالة مغلقـة مهجورة منـذ شـهرين تقريبـا بـين أوراقـي تنتظـر موعـداً مناسباً لتقـدم لي مساعدة طبية تفرج ضيق ذات اليد المستحكم..والثانية جـرح صغـير تحـت الشفة السفلي تـهوي إليه يدي لحظة أن تعبر خاطري صـورة المـرأة ـ الظـل التى كانت بداخلى، ولا تزال ، ترفض الموت..

والآن أنهض مرتعباً إلي أوراقي بعد حلم سريالي يـأخذني مـن سـقوط إلي آخر، يعريني، بين شخوص عرفتهم وكأنهم رسل الدمـار، رمـوز الغوايـة، يدفعونني من هاوية إلي أخرى بلا شفقة..أقول وقـد فـهمت المعنـى الكـامن خلف الحلم العلامة:

" اللهم اكفني شر أصدقائي،أما أعدائي فأنا كفيل بهم. "

لحظة أو تكاد..

يرتفع ستار الغيبوبة اليومية .. فأراني في مكاني غريب. لاشيء ينتمـي إلي، لا أحد يستشعر وجودي. وكأنني صرت محض طيف أو خيـال يعـبره الناس غير مبالين بمواضع أقدامهم فوق قلبه أو حواسه..لا يـهم ! لا ليـس هذا بمكاني.! أين أنا متي.؟ أين الوطن والناس الذين عرفتهم مثلـي..نفـس السحنة، اللسان، نور القلب.؟

❑❑❑

الليل المهجور ..

هو الليل بلا نوم..الليـل الموتـور وصراخ الوحشـة يمـزق صمـت النفـس المستكينة،المعلقة على حبل الانتظار، تمضـغ السـاعات النيئـة،المُـرة،أمـام الصور الملونة المتطايرة عبر الأثير، وجـوه وأصـوات مصنوعـة تُكثـف معنـى الغربة لا اللقاء كما يدعون.!

أقول: عودة.. فياليتني.! ويقولون: لن تعود. فمن جرب طعم البـلاد لا يعود له وطن .

**صبـــاح مُعلق ..**

بين أهداب الحلم الغريب..هذا الذي لم يكن حلمي يومـاً،حلـم الثروة المستحيلة ، والجسد المترهل،بعد فوات العمر،يزهو بين الأقران،ويختـال في ثوب فضفاض يكشف سر الروح الفارغة.

هل كان لي أنا الوحيد،المتوحد، المتوج على عرش الصعـاليك،أن أفـارق مملكتي الشاسعة.؟ وأن أدفع مـن عمـري القصير ثمـن هـوى القلـب المغـرم بالترحال بين المرافئ الدافئة.؟ هكذا يعلق السؤال المُر على الشفاه لا ينتظـر جواب.

" أكون أو لا أكون .. ذلك هو السؤال .

الموت .. النوم ..ولا أكثر .!

نموت .. ننام .!

ولكن قد نحلم ..! "

ولا بأس فلم يتبقى إلا الحلم .. فأنـا أحلـم وتسبقني أحلامـي ، علـى هوى الصدفة ، على درب الموت اليومي الصغير ، الموت المتكرر .. أحلامـاً عذراء لا تزال ..

□□□

**– حـُلم نهـاري –**

دق..دق..دق .. يمـوء بـاب العقـل المصمـغ بالكسـل ، وحـين ينفتـح ـ متثـاقلا ـ تنسكب علـى الوجـه البـارد ، الوجـه القنـاع ، ظـلال الكآبـة اليومية .

هل هذه هي أنت تلوحـين بـين تباشير الصبـاح ، مثـل بصيـص ضـوء يتراقص في نهاية نفق مظلم ، ويعكس ظله تحت الأجفان المرتعشة .؟

التقط خيط السؤال المنسدل لا مبالياً على حافة الفم المسكون بالصمت، أصحو من نوم الظهيرة المرهق ، فلا أسمع سوى صوت المذياع يثرثر كالعادة عن الزمن الضائع القديم .!

□□□

**– حلم متكرر –**

جماعة من الأصدقاء .. ينتمي كل منهم إلى مرحلة مختلفة مـن مراحـل العمر المضطربة ، المتداخلة .. هذا صديق طفولـة ، والآخـر رفيـق الصبـا ،

وثالثٍ زميل الجامعة ، وهكذا .. تناثر الجمع في صالة البيت الذي أسكنه حالياً ، رغم السفر فى الزمان والمكان.. يجمعنا الحلم .. كل يخوض حلمه ، ونحن البقية معه كالمثلين في مسرحيةٍ عبثية ، تجريبية .. غير أن هناك حلم مركزي جامع يعاود الظهور فاصلاً بين الحلم والآخر ..

حلم فارغ ، لاشيء فيه سواي وحيداص في وسط دائرة مفرغة .. بينما الأصدقاء كلهم .. محض خيالات تتراقص فوق جدار الذاكرة الباهت ..!

طاولة صغيرة ملقاة في عرض الطريق ، وفوقها تراكمت - كالجثث - حفنة من أوراقي القديمة ، التي نسميها مسودات ، ملوثة ببعض من آخر كتاباتي المجهضة ، وبعض حسابات الديون الخاصة ، التي لا غنى عنها لكل من ضربته حرفة الكتابة في هذا الزمن الرديء .! وفي الجوار صديق الصبا ، الذي لم أره منذ سنين ، يقف منتصباً كالحارس الأمين ، أو لعله كالبائع المتجول ينادي على بضاعتي الرديئة .!

يقترب زوجان ، لهما تلك الملامح التقليدية لموظفي الدواوين القديمة ، رجل وامرأة لا أعرفهما من قبل . يناولهما الصديق الأوراق الميتة ، ويمضيان ، يقرئان في اهتمام ورقة ورقة ، ويمزقان ما يقرئان ، ويلقيان ما يمزقانه نتفا منثورة فى الهواء .!

أصرخ من مكان شاهق الارتفاع - حيث كنت أسكن يوماً - .. يرتد الصوت داخلي ، يزلزل جنبات الروح المضطربة . أهبط مسرعاً ، أحاول إنقاذ ما قد أستطيع إنقاذه من هذه المفرمة البشرية المزدوجة التي تلتهم خصوصياتى بلا حياء .

وفي الشارع المزدحم بجيران وأناس عرفتهم ردحاً من زمن الصبا ، أهرول خلف الفاعلين فلا أجد سواي وحيداً في صحراء شاسعة ممتدة بلا نهاية ، وبعد طول مسير تفاجئني أرجوحة ضخمة تدور مثل طاحونة أسطورية تلتهم العشرات من رؤوس الكتاب المنبوذين ، أمثالي ، وتلقي بهم تراباً ناعماً يفسد غباره لون الأفق الصافي . وما هي إلا لحظات حتى تمتد يد ضخمة تمسك بخناقي ، وتلقي برأسي معهم .. فيستحيل غباراً وهواء منثوراً .!

❑❑❑

- حلم الغجري -

على ناصية الطريق الفاصل بين ما هو حياة ، وبين الموت .. كان الغجري الشاب يقف ، معلقاً من رسغيه بأحبال الهواء الممدودة حتى طرف النجم القصى ، الحارس درب المتاهة الكونية اللانهائى .

فعند تلك الناصية كان يرتكن - من قبله - الألوف من أبناء قبيلته ، المطاردين دوما بذنب من لا ذنب لهم ، بعد أن يكون واحدهم قد قطع الأربعة أشواط العشرية من سنين العمر الفانى .

وعند تلك الناصية كان عليه أن يسأل - بدوره - العراف الغجري العجوز ، المقيم هناك منذ عشرات الألوف السنين ، عن معنى الوجود .. وكان عليه - أيضا - أن يتلقى نفس الجواب كالصدى يهز جنبات الكون :

ما الوجود الذي نحيا يا ولدي سوى ورطة .. ورطة مزعجة .!

ولأنك لم تختار شئ .. فأنت في ورطة ..!

لأنك مجبر على المضي حتى النهاية دون رجوع ، ولا سبيل إلى الخروج ، أو التجاوز .!

هو قدرك أنت وحدك .. أيها الغجري الراقص على حد السيف .. قدر الأرواح المحلقة ، ولكنها محبوسة في أجساد شقية ، معذبة ، بغير أجنحة للطيران .

❑❑❑

- حلم العشق المستحيل -

.. جنازة هادئة تقطع الطريق الصاعد نحو مثواي المفترض ، بين أقدام الهرم .. من خلفي حفنة من أهلي وعشيرتي ..! ومن أمامي تتراقص فرقة جوالة من المهرجين يرتدون أقنعة ممسوخة ، تبث الرعب في قلب الشيطان المنتظر وصول موكبى الصغير .

تحلق من فوقي روح شاردة تفتش عن وليف .. روح ظامئة يغمرها الأسى وتعب السنين .. وجه شاحب ، معلق فوق ظل الجسد ، الذي بدا أكثر هزالاً عن ما كانت عليه يوم رأيتها آخر مرة منذ سنتين .!

هكذا كنا متشابهين .. أرواح موت ، متعبة إلى أقصى حد .. يسقط كل منا نحو الأخر متسانداً .. غريقاً ينادي غريق . يعبر كل منا الآخر ، وكأنه

يعانق الهواء ، أو قبض الريح . فما تبقى لنا لم يكن يكفي أبدا لكي يسند البقية المتبقية من الآخر .!

وعند البرزخ ، نقطة التقاء البحر المالح الأجاج بالنهر العذب الفرات ، تخترق كفي جدران التابوت الصخري وتمسك باليد الممدودة نحوي .. فإذا الكون ضياء ، وإذا الحياة نبع فياض يسيل داخلي ، يغمرني .. ويبدل لون الموت الباهت ، بلون العشق المستحيل .

❑❑❑

– حلم ناقص –

قال لنفسه بعد أن صحا من حلمه الغريبِ ، وعندما أنبئه الحلم بأن له ابنة رابعة ( مادلين ) لم يكن يعلم عنها شيئاً حتى هذه اللحظة :

" لابد وأنها حقيقة ، ولابد أن الأمور مضت بالشكل المقرر ، وبالسرعة المعتادة في مثل هذه الحالات : نظرة ، فرعشة ، فرحلة إلى شاطئ البحر ، فسهرة دافئة ، ثم طفلة ، أو طفل جديد ..! "

وعندما وصل إلى هذا الحد من التصديق فيما أملاه عليه الحلم ، حاول أن يحتفظ ببعض من عسل النوم بين جفنيه ، وهو ينهض ببطه لكي يكتب ما رأى الليلة بداية لقصة أو قصيدة جديدة ، قد يسعده الحظ فتكتمل .!

❑❑❑

– أكروبات –

كان الرجلِ الذئب يمضي مطارداً ، بكل ما أوتي من قوة ذكورية قديمة ، دافعاً برأسه بين ساقيه للريح تحمله إلى حيث لا أحد ، إلى حيث الذات الأصلية الأولى ، إلى الداخل ..! كان كمن يفتش تحت قدميه عن ثغرة في قلب الظلمة الممتدة منذ قرر الخروج إلى العالم الاجتماعي الواسع ، وعندما أيقن أنه قد صار قريباً من بصيص الضوء المتراقص خلفه ، كانت رأسه قد استقرت تماماً فوق الأرض ، بينما نجحتا يداه في احتلال موقع الساقين بعد أن دفع بهما ، في غمرة ثورته وهياجه ، إلى أعلى نقطة ممكنة في الفضاء القريب ، فبدت كل ساق وكأنها غصن مائل ، معلق في الفراغ بلا جذور .! وفي الخلف وقفت ، مزهوة بنفسها ، المرأة " المسترجلة " ،

بيمناها السوط يشق بطن الهواء بين الحين والحين ، وبيسراها مرآة التأمل الأنثوى المغرور .

❑❑❑

**لماذا يكتب الكاتب .؟**

هل لأنه لا يجد شيئاً آخر يفعله.. أي لأنه يكتب بفعل العادة .؟ أم لأنه مسكون بالكتابة هاجساً مدوياً يزلزل كيانه ويمنع عنه النوم ، كما يفسد عليه الصحو .؟

لعله يكتب لأن هناك من يُملي عليه الأمر ، من وراء حجب الغيب ، أن أكتب ولا تخف .

– هراء ما تكتب إن أنت ظللت تكتب ذاتك . وهل هناك من يهتم بأوجاعك أنت .؟ ومن تكون إذن لكي يهتم بأوجاعك الناس .؟ الناس يا عزيزي لا يقرؤون ، ولا يحبون الفرجة إلا على أوجاع المشاهير . أما أمثالك فمن يهتم .؟

هكذا قال الزميل . الذي تعود لفت النظر ، بينما كان بركان أوجاعه يكاد ينفجر ، رغم أنه يحاول ما استطاع أن يبدو سعيداً بلا أوجاع .!

قديما قالها أهلونا : آخر خدمة الغُز علقه ، أو علقم ، .. حكمة نافذة تشير إلى النتيجة اللا منطقية التي يصل إليها من يبذل جهده هباء في خدمة من يجحد ، أو يتجاهل مجهود الآخرين ، ولا تزال سارية المفعول حتى اليوم . فمادام البشر والحياة البشرية فلن نعدم وجود الجحود والنكران ، والخيانة أيضا ..

: أنا أخونك يا مُعلم..؟ ( بكى المريد ، القريب من قلب المسيح )

: ستنكرني ثلاثاً قبل أن يصيح الديك ..( أومئ المُعلم واثقاً ، وهو يغسل قدمي المريد المرتعشتان ، ثم عمد إلى اللقمة فدسها في فم يهوذا الجائع دوما..) ..!!

❑❑❑

**جاء الخريف ..**

عرفته في انتشار اليباس بحقول النوم ، وفي رعشة الروح بين الأحوال بلا مستقر .. فمن نوم مستمر يرخي سدوله فوق الكيان المتهالك بطالة إلى

صحو يشتهي النوم كي يخلص من ألم الرأس الفارغ .. تفلت الروح ساعة بين المناطق ، التي أعلنها العقل ممنوعة الدخول .. تلتقي ، في ود شديد ، أشخاص قطع العقل أواصر العلاقات معهم .. والغريب أن زمن السلام هنا لا يكون سوى زمن الطفولة ، وأن يكون رسل السلام هنا غالباً هم الأطفال، الرمز المزدوج للماضي والمستقبل معا .. فياللنفس الباطنة عندما تتعرى بين جدران الأحلام الشفيفة بلا خوف فيكتشف العقل أن هناك من يخونه بالداخل ، خلف خطوط الدفاع الظاهرة . الهشة ، التي أنفق الوقت والجهد فى إقامتها بوجه من يتصورهم أعدائه .

وإذا كان اليبس ، أو الجفاف ، هو العلامة ، التقليدية ، المعتادة ، على قدوم الخريف السنوي ، فهل يا ترى يكون الجفاف الإنساني ، الواضح في ذبول المشاعر وضمور الضمائر ، والقحط الفكري . واليبس الثقافي والفني الذي نعيش هو علامة الخريف الكونى .؟

□□□

**خريف العمر ..**

منذ أيام كان عيد ميلادي الثاني بعد الأربعين .. فتحت كتاب النفس لأجدن مازلت غبياً .. مشوش الروح ، مسلوب الجسد ، بلا عقل .. أخوض كالتائه في مستنقع الواقع ، تلتف من حولي صنوف الطحالب من كل لون . وهكذا لم يكن بيدي سوى أن أسلم نفسي المرأة الأولى التي أدمنت الهرب منها إليها دون جدوى .. فتحت هي كتاب القلب النيئ .. لم تجد سواها بين المرايا المتجاورة التي تحمل ظلال الأخريات اللواتي تعاقبن على احتلال مملكتها الجموح ، التي تعودت التمرد والانقلابات الدائمة .!

وفي ذلك الصباح البحري ، الخريفي ، لم يكن لدي سوى الخيال ، سوى لسان الشعر ، مجيراً من جفاف الكلمات في الحلق ، الذي غص بحقيقة الخواء العاطفي الداخلي ، ولكن أين لي اليوم به ، بالشعر ، مجيرا ، بعدما قد تبذل القلم ، وتعرى على موائد النقد والفلسفة الغبية .؟ ولم يكن علي - ثانية - سوى أن أسلم لذاكرة المرأة ، اللهمة الأولى ، التي وجدتها ما تزال تحفظ ما كنت أكتبه لها منذ سبعة عشر عاما كاملة .!

فيا للخجل ..!

هل كان لابد للخيط الذي جمع ما بيننا أن ينقطع ، حتى ندرك معنى ارتباطنا القدسي ..؟ وهل لابد لي من أن أشعر وجودك من جديد ، تلهبين ظهري بسياط الندم على ما فاتنا من أيام قضيتها متسكعاً بين أفخاذ عاهرة ، لم تعرف أبداً طعم الارتواء .؟ هل لابد من اكتمال الدائرة مرة أخرى .. دائرة العطاء اللامحدود .؟ أجل لابد للدائرة من أن تكتمل بما بدأت به .. ذلك هو القانون وما عداه باطل .. باطل كل ما صنعت من مآسي لم يكن لها من داع سوى رغبة شبقية في تعذيب الذات والآخر معا .. باطل كل ما اقترفت من آثام .. فلا شيء يذيقنا طعم الموت الحي سوى الإثم .

اليوم هو الأخير من أيام العام المنحوس ١٩٩٨ أسؤ أعوام التسعينات الثقيلة كلها على النفس وكأنها حشرجات الموت العشر نزفرها في انتظار ساعة النهاية القادمة لا محالة في العام ٢٠٠٠ . لقد بدأت هذه العشرية الأخيرة من القرن بكوارث قومية وإنسانية لا مجال لتفادي عواقبها الوخيمة حتى اليوم ، ويبدو أنها ستنتهي بنفس الطريقة تقريباً .. وإذن فغدا هو الأول من أيام العام السابق على الكارثة فاللهم احفظنا ..!

❑❑❑

**تداعيات شبه نهائية :**

في الوقت الذي تحاول فيه شمس العمر الأربعينية ميلاً إلى الغروب النهائي .. تشتعل السماء فجأة برياح الكراهية الحارقة ، ومياه الانتقام الكبريتية السامة .. وكأنما قد حان آوان النهاية ، وهبط جنود العقاب المكلفين بالقضاء على كل ذكرى طيبة علقت بجدران النفس خلال سنوات الغربة الخمس الأخيرة ..!

❑❑❑

**زمن الكتابة :**

هل نكتب لكي نتذكر .. أم لكي ننسى .؟ أم أن هذا يتوقف على ما نكتبه .؟ فعندما نكتب عن الأشياء الجميلة ، أو الحوادث السعيدة ، والأعمال العظيمة في حياتنا .. يكون هذا من أجل أن نباركها ، أو نمنحها

جميعاً حق الخلود والبقاء .. بينما نفعل العكس عندما نكتب عن قبح الوجود ، وما مر بنا من الآم ومصائب .. وكأننا نصب عليها جميعاً لعنة ممقوتة . هل كان يمكن للإنسان أن يعرف الفنون والآداب لو كان كائناً بلا ذاكرة .؟ هل كان يمكن أن يوجد الجنس البشري ويستمر لو لم نكن كائنات تاريخية ، ندرك الزمن .. نعيش فيه حاضراً ، وماضياً نتذكره ، وغدا نتطلع إليه .؟

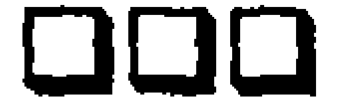
❑❑❑

" لماذا يحدث لي ما يحدث .؟ " ..

هكذا يصرخ حنظلة بطل سعد الله ونوس كلما نال ضربة من ضربات النذالة الثقيلة من أقرب المحيطين به ، فيما يظل ماضياً بعينين مفتوحتين دهشة ، وفم فاغر بلاهة ، وقلب ينتفض وجلا .! فهل يصلح حنظلة هذا نموذجا مجسدا للإنسان الطيب في مجتمع القسوة والمصالح .. مجتمع السوق .؟ أم تراه انعكاس صورة الكاتب ، المثقف ، المثالي ، في عالم لم يعد يؤمن بالمرة بوجود أمثاله ، بل ويعتبرهم بهاليل لا حق لهم في الحياة ، ولا في أي شيء .؟

وعندما عملت منذ عام تقريباً على تجسيد هذه الشخصية ، لم يكن سؤال حنظلة واضح لعيني كما هو الآن ، ولكنه كان يتراءى لعين العقل مثل نبؤة لعنة مشئومة قادمة .. وقتها كنت أحدس بصورة غامضة نهاية شهر العسل المؤقت بيني ومجتمعي الصغير الذي أعيش فيه ، وبدا لي تجمع نذر المعاناة من جديد .. إذ كانت خيوط القناع الواقي ـ الذي نسجته لي الظروف ـ على التحلل ، لكي أقف بعدها ، كما اليوم ، ظهري للحائط ، عارياً عن المناصب التى تدعو الزملاء لمداهنتك فجأة ..

وهاأنذا الآن أصرخ – كأي حنظلة أصيل – في صحراء الغربة الشاسعة : لماذا يحدث لي كل ما يحدث .؟ ولا من إجابة .. فهل يمكن أن يكون مثلي ، بكل سنوات الخبرة والتعلم ، على هذا القدر الهائل من السذاجة في فهم الناس وطباعهم .؟ هل يمكن أن أظل بعد هذا العمر الطويل كما كنت دائما..؟



**هامش أخير :**

غد تعود كما جئت .. خاوي الجيوب ، فارغ اليدين . لا شيء تحمله في حقائبك سوى قصاصات الورق .. لا بيت .. لا أسرة .. ولا شيء . ! فلماذا إذن كان الرحيل .؟ وفيما كانت الغربة الجارحة .؟ ومن يصدق هناك أنك لم " تفعل " شيئاً ، سوى قتل خمس سنوات أخرى من عمرك القصير بعيداً عن الوطن .؟

❑❑❑

**وفى صباح اليوم الألف من أيام الغربة الأخيرة..**

سمعت نفس الصوت يعاودني .. يسألني نفس السؤال الأخير قبل العودة / الموت:

– أنت.. يا أيها الواقف تتأرجح،كطائر منزوع الريش،على حافة الأربعين القاضية.. تبحث عن أناك الضائعة في أعين الآخرين ؟ ولا تجد سوى الظل، الصدى..أنت..هل عرفت من تكون..؟

– من أكون..؟ وهل أدري أنا من أكون..؟ أكون أو لا أكون. !

ومن يهتم. !

من يقدر أن يكون.؟

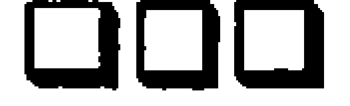
وهل أكون أنا ، الإنسان ابن الإنسان، سوي ورطة لست مسئولا عنها. !؟

آه..كم أكره هذا الضعف الذي يُسمي نفسه أنا. ! كم أكره غريزتي العمياء الجاهلة. ! التي هي مصدر تعاستي الأبدي ، والأنا الناقصة..المستعصية علي الاكتمال ، العبد الخاضع لنيران الجسد، العقبة الكئود أمام سعى العقل نحو أى إنجاز مهما كان ضئيلا..!

والآن ..

هل كان كل ما رأيت ، وكتبت ، في هذه السنوات العشر الأخيرة ..لحظة موت.؟

وما عساه يكون سواه..أليس هو الحقيقة الوجودية الوحيدة في هذا العالم ، السائر بلا معنى إليه ، وكأنه هو المحيط الواسع ونحن جداول تمضى لاهثة قادمة منه المنبع إليه المصب. !



# الفهرس

# بيلوجرافيا الكاتب
## د.صالح سعد

- مواليد القاهرة (السيدة زينب) ١١ أكتوبر ١٩٥٦ .
- تخرج من كلية التجارة وإدارة الأعمال - جامعة حلوان ١٩٧٩ .
- دفعته محاولاته المبكرة للكتابة إلى ارتياد مجال المسرح من خلال مسارح الهواة وقصور الثقافة في القاهرة .
- عين ممثلاً ومخرجاً بالثقافة الجماهيرية - إدارة المسرح فى يناير ١٩٨٣
- درس بالمعهد العالى للنقد الفني لمدة عام ، ثم تركه ليلتحق بالمعهد العالى للفنون الشعبية نتيجة لاهتمامه بالفلكلور والمسرح الشعبى .. ومن ثم حصل على دبلوم الدراسات العليا فى الفنون الشعبية - من أكاديمية الفنون بالقاهرة (١٩٨٥) .
- له العديد من الدراسات والمقالات النقدية المنشورة وكذا المسرحيات (سترد تفصيلاً فى البيلوجرافيا) ، فى الدوريات والمجلات والصحف المصرية والعربية .
- حصل على منحة شخصية للدراسة في معهد سان بطرس برج للمسرح والموسيقى والسينما - روسيا، ومنه حصل على درجة الدكتوراه Ph.D. فى علوم الفن (المسرح) عن أطروحته المعنونة (تقاليد الكوميديا الشعبية والمسرح المصرى الحديث) .. ١٩٩٢.

**صدر له :**

- تقاليد الكوميديا الشعبية ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٤ .
- ميتافيزيقا الحركة - دراسات فى التعبير الحركى والرقص - الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
- ديوان شعر "مقاطع من ديوان الغجرى" ، طبعة خاصة ، القاهرة . ١٩٩٥

**تحت الطبع :**

- مرآة الخيال : ازدواجية الأنا - الآخر فى الفن التمثيلى ..
- العودة من النزهة الصيفية - قصص وحكايات ..
- أحوال : قصائد ورسوم جرافيكية من ديوان الغجرى ..
- مشهد الشارع : مجموعة مسرحيات للممثلين .
- ضد المسرح : يوميات التجربة المسرحية (السرادق) .

# من قائمة الإصدارات الأدبية

## رواية .. قصة

| العنوان | المؤلف |
|---|---|
| ليلة العشق والدم | إبراهيم عبد المجيد |
| حمدان طليقاً | أحمد عمر شاهين |
| تباريح الوقائع والجنون | إدوار الخراط |
| رقرقة الأحلام الملحية | إدوار الخراط |
| مخلوقات الأشواق الطائرة | إدوار الخراط |
| لا أحد يحبك | أماني فهمي |
| دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢) | جمال الغيطاني |
| مطربة الغروب | جمال الغيطاني |
| دموع إيزيس | حسني لبيب |
| أحزان رجل لا يعرف البكاء | خالد غازي |
| الحب والتتار | خالد عمر بن ققه |
| أيام الفزع فى الجزائر | خالد عمر بن ققه |
| يومية هروب | خيرى عبد الجواد |
| مسالك الأحبة | خيري عبد الجواد |
| العاشق والمعشوق | خيري عبد الجواد |
| حرب اطاليا | خيري عبد الجواد |
| حرب بلاد نمنم | خيري عبد الجواد |
| حكايات الديب رماح | خيري عبد الجواد |
| الطريق والعاصفة | رأفت سليم |
| فى لهيب الشمس | رأفت سليم |
| اركبوا دراجاتكم | رجب سعد السيد |
| أنا كنده | كيروجا ترجمة : رزق أحمد |
| سيرة عزبة الجسر | سعد الدين حسن |
| شجرة الخلد | سعد القرش |
| شهقة | سعيد بكر |
| أيام هند | سيد الوكيل |
| الممنوع من السفر | شوقى عبد الحميد |
| الدميرة | د.عبد الرحيم صديق |
| جسد فى ظل | عبد النبى فرج |
| الفوز للزمالك والنصر للأهلى | عبد اللطيف زيدان |
| ليس هناك ما يبهج | عبده خال |
| لا أحـــد | عبده خال |
| صعيدى صح | د. عزة عزت |
| الشاعر والحرامى | عزت الحريرى |
| فى انتظار ما لا يتوقع | عصام الزهيرى |
| إينارو | د. على فهمى خشيم |
| تحولات الجحش الذهبى | لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم |
| سراديب | عفاف السيد |
| الزجاج المكسور | د . غبريال وهبه |
| ينابيع الحزن والمسرة | فتحى سلامة |
| يوميات عابر سبيل | فيصل سليم التلاوى |
| وتر مشدود | قاسم مسعد عليوة |
| خبرات أنثوية | قاسم مسعد عليوة |
| حب وظلال | كوثر عبد الدايم |
| ترانزيت | ليلى الشربينى |
| مشوار | ليلى الشربينى |
| الرجل | ليلى الشربينى |
| رجال عرفتهم | ليلى الشربينى |
| الحلم | ليلى الشربينى |
| النغم | ليلى الشربينى |
| الخرابة 2000 | محمد الشرقاوى |
| كوميديا الإنسجام | محمد بركة |
| أشياء لا تموت | محمد صفوت |
| إلحاح | محمد عبد السلام العمرى |
| بعد صلاة الجمعة | محمد عبد السلام العمرى |
| الخروج إلى النبع | محمد قطب |
| رشفات من قهوتى الساخنة | محمد محى الدين |
| الحبيب المجنون | د. محمود دهموش |
| فندق بدون نجوم | د. محمود دهموش |
| الهروب مع الوطن | ممدوح القديرى |
| نسيج الأسماء | منتصر القفاش |
| ثلاث حقائب للسفر | منى برنس |
| حافة الفردوس | نبيل عبد الحميد |
| ديسمبر الدافئ | هدى جاد |
| خلف النهاية بقليل | وحيد الطويلة |
| فرد حمام | يوسف فاخورى |

**بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - تراث - أطفال .**
**خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.**



كاتبٌ ملعونٌ بلعنة الكتابة ، كتابة الذات..
اتخذ من الكتابة ، لا من الواقع ، مادة حياته ،
وهكذا أصبح خياله القاتم هو المحرك لوقائع حياته ،
وليس العكس ، إذ لم يعد يرى الناس والأشياء كما هم ،
ولكن كما يصورهم له خيال الكتابة ..
وهكذا - أيضاً - يزداد من خلفه طابور الضحايا ،
أولئك الذين دخلوا حياته وخرجوا ،
دون أن يعرفوا كيف أدخلهم إليها ، ولا لماذا يطردهم منها .!؟
إنها لعبة الإيهام المسرحية القديمة ..
يلعبها الجميع ، وأيضا يغرق فيها الجميع ،
بمن فيهم الكاتب نفسه صانع الوهم الجميل ،
الذي لا يلبث أن يصدق خياله فيعيش هكذا على هوى الصدفة والتجربة ،
ولا يدرك ما يحدث حين تختلط القصص ،
ويجد نفسه في الواقع بطلا لأكثر من قصة في ذات الوقت .. فيضيع ..!

